

لؤي عبد الإله

رمىة زهر



قصص

الأعمال الكاملة 4



رمىة زهر

المؤلف: لؤي عبد الإله

الكتاب: رمية زهر (قصص) - الأعمال الكاملة 4

صدرت النسخة الرقمية: حزيران/ يونيو 2025

الطبعة الأولى: دار المدى، دمشق - سوريا 1999

- الناشر: "ألف ياء AlfYaa"
- الموقع الإلكتروني: www.alfyaa.net
- جميع حقوق توزيع النسخة الرقمية بكل التنسيقات (PDF، ePub و/أو أي تنسيق رقمي آخر) محفوظة لـ "ألف ياء AlfYaa"
- جميع الحقوق الفكرية محفوظة للمؤلف
- يعبر محتوى الكتاب عن آراء مؤلفه.
- "ألف ياء AlfYaa" ناشرة للكتاب فقط.



- تصميم الغلاف والإخراج: طالب الداود

الأعمال الكاملة 4

لؤي عبدالاله

رمىة زهر

قصص

الفهرست

7	عائلة فقيرة
13	لعبة المرايا
19	العودة الأبدية
25	رمية زهر
33	حافة الوهم
43	سر الأفعى
55	أحمر..أسود
65	غبار الذهب
73	دروس قديمة
81	شرق غرب

عائلة فقيرة

عبر نافذة حجرتها، تفتح الصبيّة عينيها، كل صباح، على شعاب متاهتها الكبيرة: وراء سياج الحديقة مباشرة تسكن فصيلة مرحلة من البلابل، التي لا تشدو لأحد سواها، وإلى اليسار تعيش على شجرة التوت، العملاقة، عائلة دود القز؛ في الليل، تنصت، إلى هسيس أفرادها وهم يدوزنون، بدأب، خيوط الحرير حول أعناقهم، لكن الصبية أهملت، في الفترة الأخيرة، بلابلها وديدانها وفراشاتها، وراحت تفكر بموضوع "الإنشاء" الذي طلبت المعلمة منها، تحضيره قبل حلول عيد الفطر. سألت كل نزلاء قصرها عن فحواه، وشرح كل منهم تفاصيله، بأمثلة متنوعة وبسيطة، لكنها ما زالت عاجزة على إدراكه.

ها هو نباح الكلب، الساكن عبر الشارع، يخرجها من دوامتها. ويفجر في نفسها حنقا ممزوجا بالخوف، ولكأنه المخلوق الوحيد الذي يقصّيها عن موضوع "الإنشاء"، ويشدها إليه رغما عنها. حينما أخبرت المربية بأن كلب الجيران هذا، ليس سوى ذئب متخفّ بثياب كلب، انفجرت بالضحك، مما أجبر الصبية على الصمت وكتمان السر الذي كادت تصارحها به. كم من مرة لاحقها ذلك الكلب عند ذهابها إلى بيت جدتها، ولن تنسى أبداً تلك اللحظات التي ظهر فيها على حقيقته؛ بعد أن طرقت الباب عدة مرات اكتشفت بأنه لم يكن مقفلا، وحينما دخلت إلى حجرة نوم جدتها، واقتربت من سريرها، تنفست رائحة الذئب القوية، ولمحت أنيابه الحادة مخفية تحت اللحاف السميك.

يتضوع القرنفل، بعبيره الشفيف، وتتشابك فوق عيني الصبية ألوان الربيع المبتوثة في حديقة قصرها، لكنها، رغماً عن ذلك، تظل ملتصقة بنافذتها. تسحب كتاباً مصوراً كبيراً، مرمياً قربها، كان أبوها قد اشتراه لها، كي يعينها على فهم موضوع "الإنشاء". تقلّب صفحاته، دون تركيز، تطالعها صور أطفال شبه عراة، ببطون منتفخة، وعلى صفحات أخرى، أناس في العراء، متعلقون حول نار ضئيلة. تسترجع أحاديث أبيها الطويلة المتعلقة بـ "الإنشاء"، والتي حفظتها عن ظهر قلب، فتغمرها الرغبة بالذهاب إلى طاولتها والبدء بكتابة واجبها المدرسي، لكن نباح الكلب، المفاجئ، يشدها ثانية إلى كرسيها.

ستظل تكرر لأبيها بأنّ، الذئب المتلبس بثياب الكلب، هو المسؤول عن مرض أمها، إذ شاهدته يوماً يلحق يدها، ولم تمض سوى أيام قليلة حتى راحت الأم تتهم الأب بنواياه في قتلها، ظناً منه بخيانتها له. سيُضطرّ الأب إلى إشراك جميع من في البيت لمساعدته في تقييد حركة الأم، بعد أن هجمت عليه بالسكين. سيقول الطبيب، بعد نقلها إلى المستشفى، إنها أصيبت بالشيزوفرينيا، سيقول الأب باكياً، إنها فقدت عقلها. ستقول جدتها إن جنيا دخل فيها، لكنها في اليوم التالي شاهدت الذئب يأكل مخاً كبيراً بتلذذ كبير.

قال الأب لجدتها، وهو يداعب، خصلات شعرها الناعم: "كم تشبه أمها". بعد مضي شهر على مرض الأم، أخذها الأب إلى المستشفى، وحينما أحضرت الأم، شاهدت الصبية مخلوقاً غريباً، مفزعاً، يجلس أمامها، بعينين زائغتين حمراوين،

وشحوب بارد، بين وقت وآخر، كانت الأم تنفجر بضحكة جريئة، حادة، وتتدفع لمسك ابنتها، لكن اذرع الممرضتين كانت تعيدها إلى كرسيها. قبل خروجهما من المستشفى، سألت الصبية أباهما عما جرى للام: "إنها الأدوية ورجّات الكهرباء". وحينما حل موعد الزيارة الثانية، رفضت الذهاب مع أبيها، وفضلت الجلوس إلى جوار نافذة حجرتها.

لن تكفّ الجدة عن ترديد حكاية زواج أبيها بأُمها: كيف ظل ذلك التاجر يلاحق ابنتها بسيارته المرسيديس، كلما خرجت من المدرسة، والذي لن يكف عن إرسال الوفود لطلب يدها، محملين بهدايا ائمن، كلما رُفض رجاؤه.

أُمضت المربية نهار البارحة، كله، معها، تحدثها عن أناس، يدخلون ضمن موضوع "إنشائها"؛ حدثتها عن أصدقاء أبنائها، عن أقاربها، عن أصدقاء أصدقائها، وظلت الصبيّة تطلب منها إعادة حكاياتها عدة مرات، حتى أصبحت قادرة على ترديدها حرفيا. كانت المربية جد حريصة، على إرضائها، وعلى تحقيق شتى رغباتها، بل هي تأمل بملء فراغ الأم، لكن الصبية ظلت منغلقة على أسرارها؛ فالمرأة التي تقيم في المستشفى لا تمت بصلة لأُمها، والجدة لم تمت، ميتة طبيعية، بل أكلها ذئب الجيران المتخفي بثياب الكلب، والحرير لا يأتي من الصين بل من شجرة التوت الواقعة خلف الحديقة..

يدخل الأب إلى حجرتها، فتغمض الصبية عينيها، يلامس، بحنو، وحذر، شعرها، يقبّل جبهتها، وينسحب ببطء إلى الطابق الأرضي. تنهض من سريرها، بخفة، تشعل المصباح المنضدي، تفتح دفتر واجباتها المدرسية، تخط في منتصف

الصفحة الأولى عنوان الموضوع الإنشائي، الذي أرّقها كثيرا: "عائلة فقيرة"، ثم تنتقل إلى سطر جديد، لتبدأ في نقل أفكارها، بتصميم مطلق: "كانت هناك، في قديم الزمان، عائلة فقيرة؛ وكان الطباخ فقيرا، وكانت المربية فقيرة، وكان السائق فقيرا، وكان الحدائق فقيرا، وكان..."

لعبة المرايا

قطع سؤالي الصمت الجاثم بيننا، دافعاً إياه إلى انفعال شديد جعل المقص يرتعش بين أصابعه، وراحت عيناه الغاضبتان تتابعان صوري المنعسكة فوق المرايا باندھاش مفتعل: "لا أظن أنني رأيتك من قبل"، ثم تركني، قليلاً، ليدخن جنب الباب، متابعا حركة الناس الدؤوبة.

منذ فترة طويلة، وأنا أحضر بانتظام إلى هذا المحل، لكن أصرة خفية نشأت بيني وبين هذا الحلاق، فحال دخولي سينهض لاستقبالي، ودون أن نتبادل أي كلمة، سينصرف كل منا إلى شأنه، هو إلى شعري، وأنا إلى صوري الموزعة على مرايا الجدران الكثيرة؛ هنا، وسط روائح العطور المنعشة، وسط إيقاع ضربات المقص المنتظمة، وسط دخان السجائر ودمدمة الأحاديث المتقطعة، تستيقظ الحواس مُنتشية بال لحظة العابرة؛ هنا، في هذه الصالة الصغيرة، سأغمرُ كلياً، في لعبة مراقبة وجهي من زوايا مختلفة، وكأنني أراقب شخصاً آخر؛ الخطوط الخفيفة المتوازية وسط الجبهة، الغضون المتحلقة حول العينين، عضلات الفكين المسترخية. علاقة راقية تنشأ بين قطبي الذات المتصارعين دائماً: المراقب والفاعل، حيث يتبادل كل منهما دوره مع الآخر على سطوح المرايا.

مع ذلك، فلم يكن ممكناً، تحت سحر اللحظة وعبقها، اكتشاف مساحيق الزمن على الوجه، وفوق الرأس، إلا عبر حلاقي الصامت دائماً: شيئاً فشيئاً، راحت ملامحه المتغيرة تستدرج عيني؛ تغلغلٌ خفي للون الأبيض بين شعره وشاربيه،

انزياح غير مرئي للشعر عن فوديه، لكنني اليوم، فقط، اكتشف التحول الكامل في ملامحه، عنيفا غير قابل على الاختفاء: بياض مطلق لشعر رأسه وشاربيه، اندفاع حر للتجاعيد بين ثنايا وجهه، وصلعة بهية وسط هامة رأسه.

مقابل ذلك، كانت حركات أصابعه فوق رأسي، ونظراته الزائغة في كل اتجاه، تنمّ، دائما، عن جهل كامل بي؛ لكنها المرة الأولى التي اجلس فيها على كرسي حلاقته. أضفتُ بانفعال قليل بعد بدئه ثانية في القص: "هل تعرف بانني منذ انتقالي إلى هذه المدينة لم أذهب إلى أي حلاق آخر سواك؟" لكنه ظل مغلفا بصمته، كدت أخبره عن الصورة التي تدور في ذاكرتي عنه، عند زيارتي الأولى لصالونه؛ كم كان شاباً وسيماً، وكم كانت الأشياء زاهية، آنذاك، بألوانها البراقة، الجميلة، داخل صالونه. جاءني صوته، فجأة، بنبرة اعتذارية، وكأنه كان يقرأ أفكاري: "معك حق في ظنونك.. هذه هي حال الكثير من زبائن هذا المحل، الكل يكرر نفس الغلطة". صرخت به محتداً: "هل تريد أن تقول إنني مجنون؟" التفت الجميع صوبي، والتفتت معهم صورهم المنعكسة على عشرات من المرايا، ليحل صمت ثقيل وسط الفراغ. لمحتُ على المرأة شيئاً من الاضطراب على وجه حلاقي، الذي راح يوشوش في ذهني: "أنا اعتذر اذا سببت لك أي إزعاج، لكن اسمعني جيداً: نحن سبعة أخوة نعمل في هذا المحل، وكل منا نسخة عن الآخر، ولعلك كنت تتنقل بين أيدينا دون أن تدري، سيأتي احدهم لإكمال شعرك، أنا لذي موعد مع طبيب الأسنان."

حينما فتحت عيني، ظهر لي حلاقي في سن الشباب،

مُضْمَخاً بالعطر، مرتدياً سلسلة ذهبية، وقميصاً مطرزاً بالورد،
راودني شعور، لحظة، بان تلك السنوات الكثيرة التي قضيتها
في تلك المدينة، ليست سوى وهم، وإنني للمرة الأولى ادخل
فيها إلى ذلك الصالون.

قبل أن أنهض من مقعدي، التفتُ إلى المرأة المواجهة،
ففاجأني، للحظة واحدة، شيخ ملّغ بمعطف رمادي، وعند
مروري وسط مقاعد الحلاقة ألقى الكل علي نظرة تعاطف. في
الساحة المجاورة للصالون، وأمام شجرة الدردار العملاقة،
ربتت كف على كتفي: وحينما التفتُ إلى الوراء، شاهدت ذلك
العجوز نفسه، يحمل في يده اليمنى مظلة. همس بفحيح، خافت،
ذليل، وهو يقدمها لي:

"هل نسيت هذه ورائك؟"

العودة الأبدية

هل كان ممكناً، أن يكفّ جنكيز خان، يوماً، عن توسيع إمبراطوريته، أو روكفلر عن زيادة ثروته؟ بل هل يستطيع أي منا مقاومة تلك النار المندفعة، دائماً، صوب خيارات ومشاريع جديدة، صوب امتدادات غير محدودة للذات؟

سأطلق على هذا المنحى: غريزة الاتساع، وكأن الإنسان محكوم بها إلى آخر أنفاسه، إذ حال وصوله إلى هدف ما، يظهر في الأفق هدف آخر، ويرصف الأهداف المتحققة، بعضها جنب بعض، يمكننا اكتشاف مساحة التمدد التي حققها الفرد منذ لحظة ولادته، ولعلنا لهذا السبب لا نتقبل حقيقة الموت.

لم يمض على الفلكي "هابل" طويلاً منذ اكتشافه حالة الاتساع المضطرد للكون؛ المجرات تبتعد، أكثر فأكثر، عن مركز الانفجار الكبير الذي وقع قبل عشرة مليارات سنة، وعن بعضها البعض. في البدء كان معدل الاتساع هائلاً، لكن مع انخفاض درجات الحرارة، بدأ التناقص في سرعة الاتساع، وأصبح ممكناً تكوّن مجرات النجوم.

كم يبدو التماثل غريباً في النزوع إلى الاتساع بين الكون الأصغر: الإنسان، وبين الكون في كليته. في كتابه: "التاريخ المختصر للزمن"، يجري "ستيفن هوكينج" مقارنة بين الزمن السيكولوجي والزمن الكوني، عبر افتراض لا يلبث أن يتراجع عنه: الإنسان يتذكر الماضي فقط ولا يعرف شيئاً عن المستقبل، وهذا راجع إلى حركة الكون الانبساطية، لكن عند

بدء مرحلة الانقباض، الذي سيعقب توقف الكون عن الامتداد ستتغير المعادلة تماماً: الإنسان يبدأ بتذكر مستقبله فقط، أما ماضيه فلن يعرف عنه شيئاً؛ حركة الحياة ستسير باتجاه معاكس، ما وقع في الماضي سيعود إلى الظهور، مثل فلم يُعرض باتجاه معاكس.

أظن أنني شاهدت هذا الحلم، بعد انتهائي من قراءة ذلك الكتاب الشيطاني بساعات قليلة: كانت عيناى معصوبتين، وكنت محشوراً في ملجأ تحت الأرض، بين حشد هائل من الناس، ومن الخارج كانت تتسرب إلينا، بين الفينة والأخرى، أصوات انفجارات مروعة، مختلطة بعويل العواصف التي راحت ترجّ الملجأ بعنف، لتبعث الرعب في أنفاسنا. فجأة، ارتفع أزيز عارم، كأنه صرير قطار كوني لحظة كبج جماح عجالاته حتى توقفه كلياً. في تلك اللحظة، أطبق سكون مطلق على الملجأ، حتى الهواء تحول إلى جليد لامرئي، وبين خلايا جسدي استقر شلل كامل.

كم بدت تلك الثواني لانهائية في استطلااتها، حيث انغرز كل شيء، بلا حراك، داخل أحشاء حلزون عملاق، لكن ارتجاجاً مفاجئاً له، دفع بالدماء ثانية للجريان في عروق مخلوقاته؛ ها هو الحلزون ينطلق ثانية في حركة، بطيئة، مترجرة، تنتظم بشكل تدريجي، حتى يتلاشى الشعور بها.

تسقط العصابة عن عيني، لأول مرة، ليواجهني مشهد المدينة التي لم أرها من قبل: ها هي الساعة المعلقة على قمة برجها، ترمي بدقاتها العشر الصاخبة بانتظام، وأمام حشد هائل من المارة، راح العقربان يتحركان باتجاه مقلوب، ليعبثا بالهجة

والخوف في نفوسهم. يتفرق الناس ببطء، تتابعهم دقائق الساعة المتناقصة. وفي الطريق إلى بيتي، لمحت الأشجار التي تكسرت بفعل الأعاصير الأخيرة، تنهض من الأرض لترجع إلى جذورها، تنافسها الأبنية المهدمة في حركتها صوب ما كانت عليه من بهاء وتناسق.

كان العالم حولي في حركة دؤوب للعودة إلى بداياته البكر: الخل المكموخ في الدنان يتحول إلى نبيذ مترقرق، الجلود المسلوخة تفلت من أكتاف المارة هاربة صوب الغابة، لتعود ثانية في هيئة دببة ونمور حية، وفي بيتي، التقيت، دون أي اندهاش، بأمي التي عادت من المقبرة، بعد مكوثها هناك زمنا طويلا، ولم تشي ملامحها إلا بالصحة والابتهاج، وكأنها لا تتذكر المرة الأخيرة التي اجتازت عتبة بيتي غاضبة علي وعلى زوجتي، حافلة بانها لن تعود أبدا لزيارتي.

في هذا العالم المتسارع صوب البدء، تتقلب العلاقة بين الأسباب والنتائج؛ بدلا من الاحتراق في حمى الندم، على الاختيارات التي دفعتني صوب أوضاع بعيدة عما كنت أتوق إليه. هأنذا أغرق في متعة مراقبة الأسباب، مخلفا ورائي النتائج، التي ما انفكت تتساقط واحدة بعد أخرى؛ في عربة العودة إلى النطفة، ليست هناك خيارات أو قرارات أو إغراءات بل اندماج في تذوق دقائق الماضي الذي أصبح مستقبلا. وفق قواعد هذا الزمن الخيالي، الأمل الوحيد الذي يحرك المرء هو الذوبان أخيرا في خضم الأبدية.

بين الطفل والشيخ متاهة تفصل بينهما، ووفق لعبة الحلم الذي شاهده، كان الشيخ ممسكاً برأس خيط طويل ينتهي عند

طرف المتاهة الآخر، حيث يقف الطفل منتظراً إياه بصبر.

فاتتني أن اذكر استدراك "ستيفن هوكنج"، عن لحظة بدء انقباض الكون؛ آنذاك ستختفي الجاذبية التي تحكم بقاء الأجسام على سطح الأرض، مما يجعلها تندفع كمشطايا انفجار بركاني صوب فضاء غارق في فوضاه وهلاميته، ولن تتاح فرصة للإنسان حتى بوضع خطوة واحدة في رحلته المقلوبة عبر تيار الزمن الخيالي.

رمىة زهر

حين تحضر صور الطفولة إلى خاطري، تحضر معها كلمة "التردد"، كصفة اكتسبتها منذ سن جد مبكرة، بل وبصيغة أدق، كملح جوهرى لشخصيتي، تحدّد، وفقه، مسار حياتي. مع ذلك ينتابني، أحيانا، الشك بصحة هذا الافتراض، مما يجعلني مقتنعا بان "التردد"، بصفة عامة، ناجم عن وجود أكثر من خيار، مطروح أمام الفرد، وحينما يمتلك كل خيار قوة جارفة تقلب حياته رأسا على عقب، يصبح "التردد" لازمة معذبة يسكن في ثنايا يقظته ونومه.

لم أكن تجاوزت السادسة بعد، حينما وُضعت أمام خيارين لا ثالث بينهما؛ بعد وفاة أمي ومضي فترة حداد طويلة عليها، سألني أبي إن كنت افضل العيش معه أو البقاء مع جدتي وأخوالي. مع ذلك، وعلى الرغم من انحيازي للبقاء مع أهل أمي، ظل ذلك الفضول والرغبة باختبار الخيار الآخر يوسوس في صدري، وحينما كنت أذهب لقضاء العطلة المدرسية، في بيت أبي، ينتابني شعور بعدم وجود مكان لي، داخل أسرته الجديدة، إلّا كزائر محبوب، بعد أن فقدت زوجة أبي الأمل بتبديل رأبي مبكرا. بين الفوضى والفقر في بيت جدتي وبين النظام والرفاهية في بيت أبي، كانت أحاسيسي الطفولية موزعة، وبشكل بدائي: في بيت جدتي كنت أتففس الحرية، وكنت موضع اهتمام الجميع، دون أن أطالب بأي شيء، وفي بيت أبي، كان ذلك التعلق الغامض بزوجه الرقيقة، الشغف برسومها وتطريزها وأناقة ملابسها، مصدراً لأحلام يقظتي،

التي ظلت تدور، حول عالم آخر، مجاور لعالمي المتحقق: بين الواقع المتحقق في بيت جدتي، وبين الواقع المتخيل القائم في بيت أبي، كان ينمو الشعور بالندم، كبرعم عسير على الفهم، من ضياع الخيار الآخر إلى الأبد.

هل بالإمكان تقسيم الناس إلى مجموعتين؟ أولئك الذين لا تضع الحياة في طريقهم، سوى خيار واحد، وأولئك الذين ترمي إليهم، في كل منعطف، بورقتي لعب، سوداء وحمراء، عليهم اختيار واحدة منهما؛ أولئك الذين يعيشون حياتهم المتحققة، منغمرين كلياً بجزئياتها، وأولئك المشدودين جزئياً إلى واقعهم المنتقى، وجزئياً إلى الحياة الأخرى المتخلى عنها، كإمكانية مضمرة؛ كلوحة جرداء موضوعة أمام رسّام.

بعد إكمالي للدراسة الثانوية، اكتشفت فجأة أن علي الاختيار بين شغفين ظلاً يشدانني إليهما طويلاً: الفيزياء والتاريخ البشري، وما كان ممكناً اختبار أحدهما، وفق النظام الجامعي السائد، آنذاك، لاتخاذ قرار الانتقال إلى الموضوع الآخر؛ هناك فرصة واحدة أمامي، للقبول في الجامعة، وخلال أسبوع واحد كان علي اتخاذ القرار. سأظل طيلة سنوات دراستي الجامعية مشدوداً إلى الموضوع الذي تخلّيت عنه، وخلال تلك الفترة، سأتخلى، عن فكرة الاحتراف المهني الذي يتطلب تكريس كل القدرات لموضوع التخصص، مقابل البقاء في مساحة أحلام اليقظة الدائرة حول هذا السؤال: ماذا كان بالإمكان تحقيقه لو أنني اخترت الطريق الآخر؟

يمكن تقسيم أولئك الذين يوضعون غالباً أمام خيارين، إلى مجموعتين: المترددين، المستغرقين بالحاضر، والمعصوبة

أعينهم عن المستقبل، والحاسمين، الذين لا ترى أعينهم سوى المستقبل، ولا يعيشون الحاضر إلا كمنصة للقفز إلى المستقبل. الفئة الأولى شبيهة بالعث المشدود، للحظة، المعبر عنها بالضياء الحارق، الذي يندفع متهوراً إليه، بينما تنماهى الفئة الثانية، مع النمل، في حاضره المحدد، بفعل الخزن الرتيب للمستقبل.

ستتكرر كثيراً لعبة الورقتين الحمراء والسوداء القدرية معي؛ في الحصول على العمل، في السكن، في علاقات الحب، بل وحتى في اختيار طفلي: كانت زوجتي حاملاً في الشهر الرابع، حينما أصيبت بنزيف دموي أجبرني على نقلها إلى المستشفى، وبعد إجراء فحوصات عديدة، اتضح أنها حامل بتوأمين، لكن الحجم المتاح لنموهما، داخل رحم زوجتي، غير كاف لبقائهما معاً. كان من الضروري إسقاط أحدهما إنقاذاً للأم، ولم تكن زوجتي في حال يسمح لها باختيار أحد الجنين ونبذ الآخر، فكان علي أن أقرر. (سيظل يرافقني شعور بالندم من وقت إلى آخر، لإسقاط الأكبر حجماً، كلما أصيب ابني بالمرض، أو كلما راودتني فكرة عما سيكون عليه ذلك الجنين الذي راح ضحية لعبة الاختيار العمياء).

وفق نظرية الكمّ، يتمتع الإلكترون الدائر حول نواة الذرة، بقدرته على التنقل بين شكله: أن يكون في هيئة جسيم له، وزن، وموقع واحد، أو أن يتحول إلى غيم موجي موجود في كل المدارات. كم سيكون رائعاً لو أن الإنسان امتلك هذه الخاصية وتحرر من قوانين الواقع الثقيلة: أن يكون هنا وهناك في آن، أن يعيش في حاضرين متزامنين؛ أن يكون قادراً في

وقت واحد، على اختبار الخيارين، بدلا من اضطراره للتخلي عن أحدهما. بعد سنوات كثيرة من العيش المنفرد، الهامشي، هأنذا التقى بامرأة مغلفة بشرنقة الحلم، مندفعة كغزال ضال، بحثا عن فضاءات جديدة. كانت واقفة في ركن منعزل ساهمة، حزينة، وأمامها كان أحد الحاضرين، مندفعاً في خطاب طويل حول إيجابيات البنيوية وسلبياتها، ولم يكن تشابك نظراتنا الأول، آنذاك، سوى لحظة تواطؤ، ضد الآخر، ولحظة انبثاق الهوى. ودّعتُ صاحب البيت وزوجته، أما هي فانسلت بصمت، إذ لم تأت إلى الحفلة إلا لمرافقة صديقتها المدعوة.

في الأسبوع اللاحق، رن التلفون ذات مساء، ولم يكن على الخط سوى تلك الصديقة التي التقيت بها، مرة واحدة، على ظهر طائرة، ولم يجمعنا في تلك الرحلة سوى تلك الغيوم البيضاء، التي بدت تحتنا كفراش، وحينما نطقنا بهذا الوصف، قالت ضاحكة: "بل كالعهن المنفوش". لم يمض وقت طويل حتى اخترقت الطائرة ذلك الغيم الكثيف، فراح متنها ينبض بعنف، مما دفع مرافقتي ودون إرادة منها بالتشبث بي: كانت أعيننا تتابع ذلك الضباب الشفيف، الذي تلبّس بثياب الحلم. بعد تبادل العناوين، فرقتنا مجاميع المسافرين، سريعا، وها هي بعد خمسة أعوام، تظهر في هذه المدينة، بمهمة عمل قصيرة، لا تستغرق أكثر من خمسة أيام.

الورقتان الحمراء والسوداء ثرمان، بكل قسوة، أمامي، مرة أخرى.

أضغط على كابس الوقود، فتندفع السيارة برشاقة متسلقة الطريق المرتفع تدريجياً، هأنذا بين هاويتين: إلى يساري،

يسكن البحر، وإلى يميني قرى تتناثر في الوادي. على المرأتين
الأمامية والجانبية تتألق أضواء البواخر، كأنها مجرات راسية
على درب التبانة، أندفع أكثر فأكثر، سعياً لتجاوز شاحنة حمل.
في تلك اللحظة تثبثق أمامي سيارة من فراغ العتمة الفسيح. لم
تكن في اليد أية لحظة لاتخاذ قرار، هذه المرة، تُرمى أمامي
ثلاث ورقات، بدلاً من اثنتين، وهذه المرة سألعب بطريقة
مختلفة كلياً: هأنذا أغمض عيني وأترك المقود طليقاً، ليختار،
بالنيابة عني ورقتي الأخيرة.

حافّة الوهم

لم تتسلل "فريدة"، يوما، إلى أحلامه، ومن ملامح وجهها لم يبق أي اثر في ذاكرته، عدا خطوط واهنة تبرز، من وقت إلى آخر، كومضات خاطفة في خاطره، شيء وحيد خاص بها، ظل مرافقا إياه دائما: صوتها المتحشرج، لحظة انفجاره بضحكة صاخبة أو بفكرة غريبة، وكم تحولت آلة الساكسفون إلى وسيط ينقله صوبها، فعبر نشيج هذه الآلة النحاسية تحضر فريدة إليه، كذبذبات موجية، أكثر منها صورة بصرية، افتراضاً أكثر منه حقيقة، لذلك جاءت رسالتها إليه حدثاً خارجاً عن سياق حياته، وعسيراً على التصديق.

لم تكن على ظرف الرسالة القادمة من الأردن، أية إشارة للمرسل، ولم يكن لديه أي صديق مقيم هناك، لكن حدسا قويا راوده بان كاتب الرسالة امرأة.

اعتاد "رمزي" على الرجوع إلى دفاتر العناوين القديمة، من وقت إلى آخر، ليبادر بالكتابة إلى من انقطعت أصرته به دون اختياره؛ سيكتب إلى أولئك الذين التقى بهم في رحلاته، أو الذين درسوا أو عملوا معه، بالمقابل لن يستلم إلا القليل من الردود، وبعض رسائله ستعود إليه، لتبدل عناوين المرسل إليهم. هذا الشغف بمتابعة مصائر الآخرين، يصب غالبا في معرفة أوضاع النساء اللواتي التقى بهن، لكانه، وبشكل لاشعوري، يتعرف على مضي الزمن عبرهن، لكن هذا الشغف، نفسه، يمنح للمستقبل رونقا خاصا؛ فتحت إمكانية الانغمار بعلاقة عاطفية عابرة، مع إحدى مراسلاته، يصبح

الغد حافلا بالمفاجأة، وتصبح الرسائل القادمة إليه وعودا غامضة بحد ذاتها.

سيظل، مع ذلك، يتجنب الكتابة إليها، أو الاستفسار عنها في رسائله إلى أخته، لكانها منذ أن قررت تركه، كفت عن الوجود في الحاضر؛ بل هي أصبحت، بالنسبة إليه، نقطة ارتكاز وهمية، منتمية إلى الماضي. هكذا، ودون أي سبب، ستلتفت إليه وسط الطريق، لتخبره بقرارها: "هل تعلم أنني سأتزوج؟" ولم يراوده أي شك بأنها كانت تمزح، لم يكن قد مضى على خروجهما من قاعة السينما أكثر من ساعة، وهناك ظلت يدها مستقرة، طيلة عرض الفيلم، فوق يده. "هل تريد أن تعرف شيئا عن تعيس الحظ الذي خطبني؟" وهذا ما جعله على يقين، بأنها تحت إحدى نوبات الكذب، الهادف إلى اختبار مشاعره، "متى تعرّفتِ عليه؟" فأجابته ضاحكة: "أول البارحة." وحينما لمحت شحوباً على وجهه قالت مطمئنة: "الزواج والحب شيئان مختلفان.. لا أتذكر أين قرأت هذه العبارة أو لعلك قلتها لي يوماً".

ستبعث فريدة إليه ببطاقتي دعوة، لحضور حفلة خطبتها؛ واحدة له، وواحدة لأخته وزوجها، ولن تجعله الملاحظة الخاصة التي أضافتها له فوق البطاقة، يغير من موقفه، فيرافق أخته وصهره: "إلى من أدخلني عالم الضوء". بل هو اندفع مسرعاً لإكمال أوراق السفر، مُتذرعاً ببنيته في إكمال دراسته، ولن يحل موعد زواج فريدة حتى يكون قد غادر الوطن.

وكعادته، لم يبادر بفضّ الرسالة إلّا بعد انقضاء يوم كامل، وبعد بلوغ حمى الفضول ذروتها. كم فاجأته لغتها المحايدة،

الخالية من الانفعالات: "منذ فترة طويلة وأنا أفكر بالكتابة إليك، لكنني لم أحصل على عنوانك إلا مؤخراً، سأنهي إقامتي في عمّان عند نهاية الشهر.." وفي زاوية الورقة كان اسمها مكتوباً بخط ناعم، عسير على القراءة.

في تلك الليلة، استرجع "رمزي" قراءة الرسالة، مراراً، إذ حالما كان يتركها فوق طاولته ويقترب من حدود الكرى، حتى ينبجس في رأسه ضوء شديد السطوع، يدفعه بشكل قسري صوب الرسالة، ليلاصق، بأنامله، قطرات الحبر الجاف فيها. جاهد لاسترجاع صورتها، عبر تقليد نبرات صوتها، عبر دفع ذاكرته إلى ذلك الزمن البعيد، لكن صور الحاضر الغزيرة ظلت ترتد إليه، لتملأ الحجرة المظلمة بشباكه، وحينما تسلل النوم إليه، شاهد نفسه وسط غابة كثيفة، وعلى وجهه استقرت الحيرة: أي طريق عليه أن يتبع؟ لكانه فقد الحس بالاتجاهات، وما عاد يعرف طريق الخروج منها.

استغرق تهيؤه للسفر يومين فقط: من عمله حصل على إجازة بدون راتب، وبدفع أجر عال لبطاقة الطائرة، استطاع أن يضمن حجراً سريعاً. كم بدت الأشياء حوله مضطربة بالألوان الناصعة. وفي أعماقه استيقظ الماضي من سباته، لا كأحداث، بل كتيار جارف من أصوات وروائح وصور خاطفة، مختلطة بتفاصيل حاضره المتقلبة.

استيقظ الفزع، في نفسه، أخيراً، بعد إقلاع الطائرة. عبر النافذة بدت له السماء الداكنة الزرقاء، خلفية محايدة، وتحت راحات الغيوم المعتمة تتلبس أشكالاً متقلبة، وحينما أطبقت العتمة على المشهد الخارجي، انتابه شعور بالخواء، كأن رحلته تتجه صوب الماضي، كأن حكماً رهيباً ينتظره.

في مطار عمّان، أعادته المصاييح وحركة المسافرين إلى الواقع، لحظات قليلة، أثار استغرابه، وجوده في ذلك المكان، كان واقفاً في طابور من الأجانب، المتحدثين بلغات مختلفة كثيرة، وحينما تجاوز آخر بوابة مؤدية إلى قاعة الانتظار، التقى بها وجها لوجه، ولم ينتابه أي تردد للتعرف عليها، كأنه لم يبتعد عنها سوى بضعة أيام، بالمقابل، كان رد فعلها خالياً من المبالغة، لم يتجاوز المصافحة وطبع قبلة على خده، لكن تألق عينيها وترقق نبرات صوتها أوشيا بما كان يعتمل في أعماقها.

قبل أن تنطلق في سيارتها، قالت له، مع ابتسامة واعدة: "لن يستغرق وصولنا إلى البيت أكثر من نصف ساعة". وفي الطريق راحت عيناه تتابعان الشريط الأرجواني المتطامن فوق الأفق، حيث يتدرج متصاعداً في كثافته اللونية، حتى يختفي في عتمة السماء العارية، بدت له البيوت الحجرية، المعتمة، المنتشرة على جانبي الطريق، مسمرة في اللازم. من وقت إلى آخر، يأتيه صوتها المرح، بكلمات لا رابط بينها، لتضيع وسط ضحكات الطفولية، يلتفت إليها، يراقب بروفيها، بإمعان، غمازتها المشرقة، أهدابها الطويلة المبتلة بدموع الإثارة، ترميه بنظرة ساهمة، تنحرف السيارة عن الطريق، لترتج بعنف فوق الحفر، قبل رجوعها إلى شارع السيارات.

عصف لقاءه الأخير، بها، بكل كيانه، متسللاً إلى كل شرايين ذاكرته. فجأة اختفت فاصلة الزمن العازل بين الحاضر والماضي عن أحاسيسه، قال مواصلاً حديثه الذي انقطع منذ ذلك اللقاء: "لم تقولي لي ما اسم الشخص الذي ستتزوجينه".

ظهرت تقاطيع الدهشة فوق وجهها، لكنه أولها، كشيء من المكر المسرحي الذي تعشق القيام به. اندفع يعيد تفاصيل ذلك اللقاء، جملة جملة، حدثها عن "لوزي" مخرج فيلم "الوسيط" الذي شاهده قبل قليل، اقترح عليها الذهاب لرؤيته ثانية في الأسبوع المقبل.

لا بد أنه نام قليلا في السيارة، إذ حال استيقاظه، كان ضوء النهار ساطعا. خلف مقود السيارة جلست امرأة أنيقة، ممثلة، تراقبه بحنو. قالت له بعد عبارات السلام، بنبرة وقورة، مرحلة: "تركناك تنام بسلام، هل رأيت كم تشبهني حذام؟" كان بإمكانه أن يشاهد فوق وجهها وبين طيات رقبتها فاصلة الزمن القائمة بينهما.

لم تظهر فريدة أي حرج للقائهما، بل كأنه فرد من أسرتها، التقت به بعد عودته من رحلة طويلة. بين فترات الصمت الطويلة، كانت تُمسك بخيط الحديث، لتواصل ما ابتدأته. أخبرته عن موت زوجها، الناجم عن تلف الكبد، عن زواج ابنها الأكبر وهجرته إلى كندا، ثم أرته صور الابن وزوجته وطفلها، ابنها الثاني يفكر باللاحق بأخيه حال انتهاء خدمته العسكرية، ومن المطبخ جاء صوت حذام مرحاً: لا تقلقي سأبقى معك دائماً، وعندما أحضرت إليهما القهوة كانت قد غيرت ملابسها: من تنورة قصيرة، إلى أخرى طويلة، تنتهي عند كاحلي قدميها. قالت فريدة متشكية: هذه هي حالها، كل خمس دقائق تبدل رأيها. قالت حذام: أنا مثلك، كلانا من برج الجوزاء، ثم التفتت إلى رمزي، سائلة بنبرة متحايلة: أليس كذلك يا عمي؟

عند خروج ابنتها من البيت، انتابه شعور غريب بالارتباك،

وحيثما التفت إليها، صعقته صورتها الحالية: التسليم الواضح في نبرة صوتها، بدلا من ذلك الفضول الطافح بالفرح والدهشة، الحركة الثقيلة بدلا من الاندفاع المتوثب، انكسار النظرات بدلا من تألقها الدائم. بين وقت وآخر، كان يلح فوق عينيها، شرارة انفعال تعيدها إلى الصورة القائمة عنها في ذاكرته، لكنها لا تلبث أن تختفي، لتحضر أمامه المرأة الغربية نفسها. سألته إن كان قد تزوج، وحيثما أجابها بالنفي، سكنت قليلا، لتواصل بنبرة أمومية: "عليك أن تفكر بتكوين أسرة قبل فوات الأوان".

بعد تتأقل الصمت بينهما، فتحت فريدة التلفزيون، ثم راحت تحوك بدون تركيز. من وقت إلى آخر، كانت تلقي نظرة على الشاشة المضاء، معلقة على هذا المشهد أو ذاك، فيضيف هو تعليقا مكملًا، لافتعال التواصل بينهما، وعند وصول حزام إلى البيت، وسماعه صرير الباب الخارجي، شعر كأن طيرا يخفق في كيانه.

في تلك الليلة نفسها حضرت أمه المتوفاة إليه عبر الحلم؛ شاهدها وهي تقدم له الماء بكأس أزرق، لم تتبادل معه الكلام، بل خرجت فوراً من باب خلفي إلى ظلال عريشة العنب. فتح عينيه وسط الظلمة المطبقة. للحظة، نسي أين هو آنذاك. أشعل سيجارة، ثم راح يراقب، حركة الجمرة القرمزية.

فجأة، قفز من فراشه، ملسوعا بالجمرة، بعد شروده عن السيجارة، أشعل مصباح الغرفة، فبرزت حقييته المفتوحة، وأشياءه القليلة المعلقة خلف الباب. التصقت عيناه بصورة حزام الموضوعه فوق الطاولة، وقريبا منها قبعته صورة أمها

وأبيها. قالت له فريدة: "ستنام في غرفة حزام"، وحينما عبّر
عن رغبته بالذهاب إلى الفندق، احتجت معاتبة: "هذا بيتك".

تحت وطأة الشعور بالضيق، اندفع لا إراديا صوب أشياءه،
ليضعها، دون ترتيب، في حقيبتة. تسلل بحذر خارج البيت،
تاركا وراءه رسالة وداع قصيرة. وكم فاجأته النجوم الغزيرة
بلمعانها، وخفقاتها المنتظمة، دافعة بخلايا روحه كي تتوافق
معها في النبض.

سر الأفعى

ستظل خالتي تردد كلما عبّر أحد عن إعجابه بجمالها المتجدد: "بهذه الحقيبة سأهزم الشيوخوخة دوما"، ولم يكن أي من الحاضرين يفسر ما تقوله حرفياً، سوانا نحن الصغار. ستظل أعيننا ملتصقة بالحقيبة المكعبة الزرقاء، مرفوعة للحظات أماناً، لتختفي من بعد، تحت عباءتها السوداء، المشلوجة على الكنبه جنبها.

تُصر أختي، عند استرجاعنا لذكريات الطفولة المشتركة، بان صفية لم تكن خالتنا، بل هي خالة أُمي الكبرى. على يديها وُلد الجميع: أُمي، خالتي، وأبناؤهن، بل ومعظم أبناء المحلة الذين وُلدوا بعد الطوفان الشهير. ولان جميع الأقارب الكبار، الذين عاصروها قد ماتوا أو أصيبوا بفقدان الذاكرة، أصبح بإمكاننا نحن الاثنين التمتع بالاستذكار، وتبديل الأحداث وأمكنة وقوعها كيفما نشاء. وحتى عند الاختلاف على حقيقة هذه الواقعة أو تلك، سننتهي بالتسليم بصحتها. لن نختلف، يوماً، في حقيقة هوسنا بحقيبة الخالة صفية، وكم مرة اقتربنا منها تحت تأثير مغناطيسي غامض، أملاً بلامسة جلدها المتألق تحت أضواء الليوان الشاحبة، لكن نظرات الخالة اليقظة، ستوقفنا في الوقت المناسب، لتبعث الخوف في أنفاسنا، وتجبرنا على الاختفاء بين زوايا البيت.

بين الافتتان بسحر حضورها وبين الرهبة منها، خيط رفيع يتحسسه الجميع؛ في الأعياد، يلتقي الأقارب ببعضهم في بيتها، هناك، ستُحلّ الخلافات بينهم، وتنزاح الضغائن عن القلوب، ثم

تصفو السرائر وتشف، لتندمج في طقوس الذوبان ببعضها، تحت ظلال شجرة العشيرة الدائمة الخضرة: خالتنا صفية. هناك، كنا نراها نحن الصغار، جنية خارجة علينا من حكاية خرافية، بثوبها النيلي، ببشرتها البيضاء، بشعرها الأسود الكثيف، المنسدل حتى منتصف ظهرها، جالسة بأبهة فوق سجادة الكوشان العتيقة، وأمامها يبعث السماور ببخاره، مختلطا برائحة المستكي والياسمين.

"بهذه الحقيبة سأهزم الشيخوخة دوماً". بين وجوه الكبار المتغضنة بالتجاعيد والخطوط، سيظل وجه صفية صفحة مرمية، ناصعة، يسخر بإزميل الزمن وقسوته. نسترجع، لمأماً، ما كانت تردده جدتي، نقلاً عن أبيها: في ليلة ولادة صفية، ظهرت نجمة، بذيل طويل، ممتد حتى قبة السماء. كان حجم النجمة الكبير وقربها من الأرض، مثيراً للهلع، لكن ذيلها المتألق بنثار الضوء الطباشيري، كان أسراً للإبصار، حتى بدا المشاة كالنيام، مشدودة أعينهم إلى السماء، وعلى ألسنهم آيات الدعاء والاستعاذة.

وكم استبشر الناس بقدم صفية، حينما ابتدأ ذلك النجم بالانسحاب تدريجياً، والتلاشي بين قرني برج الثور. أكدت جدتي، بان أحجاراً نارية سقطت من ذيله، أشعلت حرائق مهولة في البلاد، لكنها خَفت وراءها قطعاً صغيرة، شبيهة بالعقيق والفيروز، تتوهج في الليل كالكهرب، ومن حصل على ثلثة منها أصابه حظ وفير.

"بهذه الحقيبة..."، لم تكن صفية قد تجاوزت الثالثة عشرة، عندما طلبها تاجر الحبوب، سرحان، من أبيها، ولم يكن ثديها

أنذاك إلا خشفتين ناعمتين، لكن الأرمل العجوز، كان قادرا بعينه الكليتين، على رؤية ما تخفيه تلك الملامح الصببانية، من حلاوة، تنتظر يومها. كانت صفة تأخذ كل يوم طعام الغداء إلى دكان أبيها. وكان الأب يراها كأنها ابنه الذكر، وسط بناته الخمس، لكن تقدم ذلك الثري إليها، وضع الأب أمام الحقيقة القاسية، فكان عليها أن تكف عن اللعب مع الصبيان، وان ترتدي العباءة والنقاب فوراً.

لن تسبب خطبة، سرحان، أي أذى لصفة، بل أمام التردد الذي غمر أبيها، باتخاذ قرار منصف بحق أحب بناته، أظهرت جراءة غير طبيعية: هناك شرط واحد على التاجر تنفيذه؛ أن يساعدها على تعلم القراءة والكتابة.

تؤكد أختي، بان تاجر الحبوب، كان يمتلك مزرعة وبستانا واقعين على النهر. وهناك، كانت صفة تفضل قضاء معظم الصيف. في المزرعة، ستكسب تلك الصبية على مراقبة الأبقار والخيول والخراف، ستتابع دورات حياتها: لحظات السفاد الساخنة، لكل فصيلة، حيل الذكور في التقرب، وردود أفعال الإناث، فترات الحمل، ساعات الولادة القاسية، ومن مساعدة إناث الحيوانات، في إخراج صغارها، تعلمت صفة أسرار مهنة العمر.

كان على سرحان التكيف مع نزق صفة ومزاجها المتقلب: في النهار، ستقضي وقتها مرتدية ملابس رجال، متجولة على ظهر حصان، أو مشغلة في إدارة شؤون المزرعة، وفي الليل، ستنتقل إلى فتاة ساحرة، متمنعة، ومولعة بإبقائه على حافة التلهف المريع.

سيظل ذلك التاجر يطارد سرايا؛ ما أن يآلف حياته مع زوجته الصغيرة، ويبدأ بتذوق عطاياها السرية، حتى تغمرها روح التغيير الشريرة؛ الانتقال من المدينة إلى الريف، أو بالعكس. ولن تمضي سوى سبعة أعوام، كي تبدأ تجارته وأملاكه بالتلاشي. آنذاك ظهرت عليه أعراض المرض، الذي عجز الجميع عن معالجته: اليقظة الدائمة. في الليل، سيراه الناس، هائماً على رجليه أو على ظهر فرس، ولم يفاجأ أحد حين عثر عليه أحد العسس، طافيا فوق ماء البئر، وعلى عينيه دهشة مثيرة للحيرة.

ستضج الحياة من جديد، في بيت أبيها، وبالنقود التي ورثتها، سيتم تصليحه وتجميله. فوق الباب الخشبي ذي المصراعين، ستعلق قطعة مطلية بماء الذهب: "قابلة مأذونة"، ومن الداخل ستنبعث الأغاني الشجية، قادمة من أول غرامفون يدخل الحارة.

لم يتوقف عمل صفية عند حدود منطقة معينة، كان الكثير من رجال، الأحياء البعيدة، يأتون إليها، حين تظهر أعراض الولادة على نسائهم، مدفوعين بتلك الشهرة التي رافقتها منذ ولادتها، وكم اطلق الآباء اسم "صفية" على بناتهم. في حضورها، بالمقابل، بدأت الأواصر تتشكل بين تلك الأحياء المنعزلة، والمعادية لبعضها، تحت تأثير نفوذ صفية الغامض، لتتفتح تدريجياً الطرق بينها.

ولم يكف أبوها عن الافتخار بها، يوماً، مقتنعا في قرارة أعماقه بأنها تعادل أكثر من عشرة أبناء ذكور. بعد عودتها بفترة قصيرة، أقنعت صفية الأب ببيع دكانه، والتفرغ لحفلات

الذكر التي كان مولعا بها. تحلف أختي، بانها سمعت كثيرا عن خوارقه المرحه، التي ارتكبها في آخر سنوات حياته: عبور النهر مشيا فوق سطحه، الظهور المتزامن في مكانين مختلفين..

حينما نقارن، أنا وأختي، بين جدتي واختها صفيه، نكتشف في كل مرة، فوارق أخرى تفصلهما عن بعض. كانت جدتي، على سبيل المثال، محكومة بخجل عميق، يتجلى في الوان ملابسها الغامقة، في انكسار نظرات عينيها، في نبرات صوتها الواطئة، بينما تعكس خصائص صفيه النقيض المتطرف.

نكتشف، باندھاش، كم كان مسموحا، لصفية القيام باي فعل، محرّم، آنذاك، على النساء، كأن الرجال اعتبروها واحدة منهم. ستبعث، يوما (تحت وطأة نزوة غريبة)، لإمام المسجد الناسك، مع خادمتها، بهدية غريبة: علبة من عسل الجبال النادر، ملفوفة بمنديل مخضل بماء الورد، ولن يأتيها الجواب إلا بعد انقضاء أسبوع: أبيات غزل صوفية، قابلة لأكثر من تأويل، مدروزة بخيوط ذهبية، على قطعة حرير. سيتحدث الكل، بانبهار، عن ذلك الحب العذري، الذي ظل حيا، في ذاكرتهم حتى بعد موت شيخ الجامع، بالسل، بسنوات.

أو حين عادت، ذات مرة، إلى بيتها، بعد نهار عمل مضمّن، حاملة تحت عباءتها، وليدة لم ير الناس مثيلا لها من قبل: عينيّ بلون الزمرد وبشرة بصفاء الثلج. ستتكاثر الإشاعات، مع بروز ملامح تلك الطفلة الأسرة، أكثر فاكثرا، حول اصلها: سيّدعي البعض بانها ثمرة علاقة سرية بين جني وأنسيّة، سيجزم آخرون بان أبويها أوروبيان، فضلا التخلي عنها،

سيهمس قليلون بانها من صلب القابلة نفسها. لكن صفية ظلت محتفظة بصمتها وبرودها، وكأن شيئاً لم يحدث، ولن يمضي وقت طويل قبل أن يغير الناس رأيهم، ليعتبروا تلك الطفلة هبة سماوية لهم. ستطلق خالة أمي على ابنتها المتبناة اسماً لم تعرفه الحارة من قبل: "وجد القلوب".

تتدارك، أختي، خيط ذكرياتها وخيالاتها، لتتحدث عن ذلك الدرويش، المولع بالسحر والتنجيم، وعلاقته بصفية. ولا بدّ أنها تعرفت إليه عبر بعض زوجات الأعيان. كانت لخالة أمي آنذاك، علاقات واسعة بعوائل المسؤولين الكبار، وغالباً ما كانت تُدعى لحفلات الزواج والختان التي ينظمونها من وقت لآخر. كان أبناء الحي ينظرون إلى صفية كسفيرة تمثل مملكتهم المعزولة، إذ عبر صوتها كان العالم يعرف بوجودهم واحتياجاتهم. ولن يتردد أي منهم في الذهاب إليها، أن هو احتاج إلى توصية تساعد في الحصول على عمل.

حال لقاء الدرويش بها، ذكر لها، اسمها، واسم أبيها، على الرغم من تلفعها بالعباءة ونقاب الوجه، أخبرها عن ماضيها، كشف لها عما يخبئه لها الغيب في أوراقه، وقبل أن تتركه وضعت ورقة مطوية بين يديه، تحدد له ما كان يجهله حتى ذلك الوقت عن مصيره: "أتمنى أن اجتمع بك على سنة الله ورسوله". ستسافر صفية مع الشيخ كثيراً، لزيارة الأولياء، المنتشرين في أصقاع الشرق، الأحياء منهم والأموات، ستتغمر معه في تجارب روحية، ساكنة عند حافة الجنون، كان الحاضر، خلال تلك الفترة، يختلط بالماضي والمستقبل في روح صفية: قبل أن تسمع طرقاً على الباب، ستنهض لتفتحه،

ذاكرة اسم الزائر، متحدثة عما جرى له قبل يوم أو يومين. وكان على زوجها أن يأخذها إلى شيوخ ضليعين في الأسرار الباطنية، كي يعيدوها إلى قيود العقل وضوابطه.

سيحتفي الناس بعودتها، بطريقة عجيبة: الذبائح في كل مكان، زغاريد النساء تصدح في الهواء، صواني الشموع الطافية فوق النهر. تنذهل صفية لما تركته سنوات الفراق على وجوه الأقارب والجيران من ندوب وحفر، بل وحتى البيوت والشوارع بدت لها هرمة، تغفو فوقها طبقات الغبار. مقابل ذلك كان الآخرون يتمعنون في وجهها باندهاش، فكأن الزمن تحرك باتجاه معاكس معها: ها هي تعود إليهم أكثر توهجا، وأكثر شبابا من قبل.

حين فتحنا أعيننا، أنا وأختي، على عالم الكبار، كانت "وَجْد القلوب" شابة، تقيم في حي مجاور مع زوجها وطفليها، وكم كان عسيرا على من يلتقي بها برفقة صفية، اكتشاف فارق العمر الحقيقي بينهما.

لم يتوقع أحد حضور صفية، في ذلك المساء الموحش، إذ ظل المطر يهطل، بجنون، طيلة ساعات النهار، ليَجبرنا، نحن الصغار، على المكوث في البيت. كان الكل جالسا في الليوآن، عندما رفعت ستارته السميكة الفاصلة عن الحوش، وكم بث حضورها المفاجئ في شراييننا البهجة. قالت معتذرة أنها لن تبقى سوى دقائق، فعند باب البيت ينتظرها الحوذي. كانت في طريقها إلى حفلة عرس، فقررت أن تعرج علينا قليلا. ومع إلحاح الكبار جميعا، رمت بعباءتها، وحقيبتها، وتناولت قدح الشاي من أمي. وفي لحظة نهوضها للمغادرة، سمعنا طرقا

عنيفاً، قفز أخي الأكبر، واندفع صوب الباب الخارجي، ليعود بعد لحظات شاحباً؛ هناك رجل يطلب إسعاف زوجته التي حضرها المخاض. عبست صفية، قليلاً، لملمت نفسها بصمت، ثم قالت، لأخي، بحزم: "اصرف الحودي"، ثم التفتت إلى أُمي، سائلة إن كانت ترغب في مساعدتها.

هل هي المفاجأة وحدها التي جعلت صفية تنسى حقيبتها فوق الكنب؟ كانت الريح الهائجة سبباً في انقطاع الكهرباء. أشعلت جدتي الفانوس، ثم راحت في إغفاءة عميقة، على إيقاع، ثرثاراتنا وضحكاتنا المتواصلة، وكاد النوم يسرقنا إليه، لولا التماع الشرر المنعكس فوق حقيبة صفية أمام أعيننا، وللحظة واحدة. نهضنا ببطء ووجل، وكأن الفكرة حضرت إلينا، في آن، للتسلل نحو الحقيبة الغامضة وفتحها، خشخشتُ بين أصابعي قطع معدنية، توقفتُ عند جسم صغير لدن، وحين سحبته، واجهتنا محفظة صغيرة مصنوعة من جلد الأفعى. بعد لأي تمكنا من فتح السحاب القصير، وعند قلبها سقطت قطعة ملتصقة صغيرة واختفت بين خيوط سجادة الكوشان الواسعة.

بين الماضي واسترجاعه تسكن حقيقة زبئية أخرى، تتبدل في كل لحظة، وتمنح لحياتنا الداخلية تنوعاً لونياً خصباً. كان بإمكانني رؤية هذه الحقيقة، طافحة فوق عيني أختي، المنفعلتين، وهي تسرد هذه النهاية، التي اشك بكل عمق في صحتها: كانت تلك القطعة حجراً كريماً، جعل الليوان مضاءً بنور، أزرق، ضبابي. منذ زمن طويل كانت تسكن بين خشب السقف، أفعى كبيرة، تتحدث معها جدتي، من وقت لآخر، وكأنها فرد من العائلة. وفي لحظة بحثنا عن الحجر المفقود،

برزت أمامنا الأفعى رافعة رأسها بغضب، مما جعل الدماء
تجمد في عروقنا، ولن تمضي سوى ثوان كي تقتنص ذلك
الكنز من بين وشائع الزربية العتيقة، وتهرب كومضة برق،
تاركة وراءها جلدا متأكلا.

بعد انقضاء الليل، وانفتاح بواكير الفجر على حدود العتمة،
عادت خالة أمي، منهكة. وكم فوجئنا بالشيخوخة، المفزعة،
التي حلت بها خلال ساعات غيابها الأخيرة.

أحمر.. أسود

لا بدّ أن الريح كانت وراء انقطاع التيار الكهربائي. عبر النافذة العريضة، لاحت له الغيوم الكثيفة، موشحة بحمرة منطفئة، وأمامه تلبست أشجار السنديان العارية أشكالا غامضة، حيث راحت تتمايل، بانتظام، تحت إيقاع عويل العاصفة. التفت "سالم" إلى الداخل فواجهته عتمة ثقيلة. تلمس طريقه صوب الباب الخارجي، كان الشعور المتزايد بالضيق يدفعه لمغادرة بيته. عند حافة الممشى الفاصل بين شقته والفضاء، توقف قليلا، مستندا على الحاجز. أدهشه مشهد البناية العملاقة، الواقعة إلى يمينه، إذ بدت واجهتها مستعرة بنقاط ضوئية خافتة قادمة من وراء النوافذ.

حال هبوطه إلى الطابق الأرضي، استرجعت عيناه الاتجاهات، كانت درجات العتمة التي تغلف الكتل حوله ترسم الطريق الذي يقود إلى الشارع الرئيسي. مشى إلى جوار البناية، مبهورا بالمشهد، وعند حافتها استدار يمينا.

توقف "سالم" أمام تلك الحانة القائمة وسط المسافة الفاصلة بين مسكنه ومحطة القطار، وكم أدهشه أن تكون غارقة في الصمت والعتمة، حتى انه انتابه الشك بصحة الوقت فوق عقربي ساعته. قبل الاندفاع في خطواته، لمح بصيصا ضئيلا من الضوء، متسرّبا من درفة باب المبنى المجاور للحانة. كان على قناعة كاملة، بان ذلك المكان، قاعة "بُنْغو" مخصصة للمسنين، لكن القطعة المعلقة، على أحد مصراعي الباب، جعلته يشك بحقيقة وجود هذا المبنى من قبل: "للمغامرين فقط..

كل شيء أو لا شيء". مس بأنامله الحروف الفسفورية
فترجرت اللوحة الصغيرة وراحت معها الكلمات تظهر
وتختفي بانتظام.

هل هو الخوف وحده، الذي يدفع المرء لتجاوز حدوده؟ في
تلك اللحظة كان "سالم" واقفا على عتبة تجربة مجهولة، وكلما
اقترب من الباب أكثر، كلما اندفع قلبه بنبض أعنف.

في الداخل واجهته صالة غارقة بالفوضى: كراسٍ موضوعة
فوق طاولات، لفائف مهملّة من الأبسطة، صفائح طلاء،
سلالم، وفراشٍ مبعثرة على الأرضية، كان الضوء الأبيض
المنبعث من مصباح غازي منتشرًا، بدون اتساق، فوق
الأشياء، فبدت ظلالها فوق الجدران أشباحًا باهتة. عند طرف
الصالة المقابل له، توزعت عدة أبواب نصف مفتوحة، على
فراغات مظلمة. وفي زاوية الصالة، قريبا من المصباح
الغازي المعلق على الجدار، كان هناك رجل جالس وراء
مكتب، وعلى رأسه "كاسكيتة" حمراء. قال، من دون أن يرفع
رأسه: "تفضل.. كنت متوقعا زيارتك هذه الليلة". دعاه للجلوس
على كرسي مقابل له، وعبر المسافة الفاصلة بينهما، كان
بإمكانه مراقبة تقاطيع وجه الآخر المتجهمة، وآثار الندوب
فوقه، إذ ظلت عيناه تراقبان ورق اللعب الممسوك بين أصابعه
بعناية. "لدي لعبة ستعجبك كثيرا". رمى بثلاث ورقات أمامه
وكدّس البقية جانبا. "كما ترى، هناك ورقتان سوداوان وواحدة
حمراء، سأقلبها بهذه الطريقة، وافرشها تحت عينيك، عليك أن
تسحب ورقة واحدة، إذا كانت سوداء ستفوز بمليون جنيه". قال
"سالم" بعد لحظة صمت ثقيلة: "وإذا كانت حمراء؟"، ضحك

الآخر، قليلا: "ستدخل في لعبة أخرى" سعل قليلا، ثم رمى سيجارته على الأرضية: "هل رأيت الأبواب الخمسة المفتوحة؟ إذا اجتزت أيًا منها فانت ستمر بنفق قصير يقودك إلى الخارج.. في أحد هذه الأنفاق المظلمة يختبئ رجل واحد، مكلف بإطلاق رصاصة واحدة فقط، تجاهك." قال سالم، بعد أن استجمع أنفاسه: "إنها لعبة خطيرة". قال الآخر، مخففاً، بلهجة ودية: "إنها ليست إلا لعبة، هل تعرف أن أكثر سكان هذا الحي قد جربوا حظهم معي، فهل سمعت يوما عن مقتل أي شخص هنا؟" نهض سالم بحزم: "أنا لن أخاطر بهذه اللعبة أبداً"، ثم مضى صوب الباب الخارجي. كان صوت الآخر يلاحقه مع كل خطوة يضربها: "ماذا لو أجعل الأوراق السوداء ثلاثاً؟ أربعاً؟ خمساً؟" وقبل أن يسحب سالم ذراع الباب، تردد في أذنيه آخر تعبير أطلقه ذلك الرجل الغريب: "عشر ورقات سوداء لك". حل الصمت، قليلا. كانت تلك الكلمات أشبه بالتعويذة التي شلت عضلات ساقيه ويديه، لترجعه بعد وقت قصير إلى كرسيه.

أشرقت أسارير الآخر، وهو يفرش الورقات أمامه: "هذه هي اللعبة الوحيدة التي تخفف عني مرض الضجر، لن تصدق إذا قلت لك إنها اقتراح أحد أطباء الدماغ الكبار". سحب سالم ورقة، انتفض قلبه، انحبس الهواء في صدره، وحينما رفعها إلى عينيه انشطرت علامات البستوني السوداء إلى فقاعات زاهية، ترقص في فضاء الحجرة الباردة. دفع خصمه إليه برزمة ضخمة من النقود، مشدودة بشريط اخضر. أضاف، حينما شاهد "سالم" يتململ تهيؤا للخروج: "يمكنك الاستمرار في اللعب إذا أحببت، بالأوراق الباقية". بعد لحظات من

الصمت، مد سالم يده اليسرى إلى الورقة الثالثة ليقلبها فوراً على صفحة المكتب المعدنية. كان اللون الأسود لرسومها ناصعاً تحت ضوء المصباح الغازي.

هل هي القناعة الزائفة التي تصيب المقامرین بعد فوزهم الأول، بان قوى علوية تقف إلى جانبهم، كانت وراء استمرار سالم في اللعب، أم انه الشعور الوهمي بامتلاك حاسة إضافية خارقة، تمكنه من قراءة المجهول؛ بعد الورقة السوداء الثالثة، اندفع محموماً بفتح الأوراق واحدة بعد أخرى، وحينما بقيت ورقتان، تلكاً قليلاً. قال الآخر: "توقف عن اللعب اذا أحببت.. تسعة ملايين جنيه مبلغ جد ضخمة". لكن الشعور بالقوة المتنامية، اجتاح كيانه. ها هي يده اليمنى، تمتد بكل جرأة، لتنتقي ورقة. ظهرت له صورة الكبّة الحمراء على زوايا ورقة اللعب الأربع، فاخرقه شعور بانه سجين كابوس ثقيل.

قال "سالم" متلعثماً: "ما رأيك لو أنني ارد لك النقود كلها مقابل..". فأجابه الآخر غاضباً: "أنا لا احتاج إلى نقودك.. هل تعرف أنني اربح كل يوم إضعاف هذا المبلغ. إن ما يهمني هو معالجة نفسي قبل كل شيء". أضاف مخففاً، بعد أن اعتلى شحوب حاد وجه "سالم": "لا تخف، احتمال عبورك إلى الخارج، معافى، كبير جداً، بل هو شبه مؤكد، إضافة إلى ذلك، فالعامل الجديد الذي اخترته لتأدية "المهمة" مصاب بقصر النظر، ومع انقطاع الكهرباء اليوم، سيكون شبه مستحيل أن يصيب الهدف".

أخرج كيساً من أحد جرارات مكتبه، وأعطاه لسالم، كي يضع نقوده فيها. تظاهر سالم بالإذعان، فراح يدخل الرزم في

الكيس ببطء متعمد، لكنه حال شعوره بشرود الآخر، للحظة، انقض عليه ضاربا إياه بأكداس النقود الثقيلة، لينطلق راكضا صوب الباب.

اندفع صوب شقته، عبر أقصر الطرق، مخترقا حديقة صغيرة، خشخشت تحت قدميه، أوراق الشجر، مختلطة بحميم أنفاسه المتسارعة، كانت أذناه تلتقطان، بحرص شديد، تلك الهمهمات الغامضة التي ما انفكت تلاحقه، وعيناه تتابعان شرر الضوء المنبعث من مصابيح اليد. وصل إلى بنايته، اقتحم دون تردد، سلّمها الغارق في ظلمة مطبقة، تعثر عدة مرات، حتى عثر على درابزون السلم، تشبث به، وراحت ساقاه تقفزان السلالم اثنتين اثنتين، ووراءه راحت الأصوات تتضح أكثر فاكثراً، بين لحظة وأخرى، كان شعاع ضوء خافت يخرق الظلمة ليرسم بقعا باهتة متحركة فوق الجدران.

عند الطابق الثالث، انحرف إلى اليمين، اجتاز الشقتين المجاورتين لمسكنه. فتح الباب بارتباك كبير، وعيناه تتابعان تلك الأشباح التي بدأت ملامحها تتضح، وفي لحظة دخوله إلى البيت، انفجر صوت صاعق كالرعد وراءه. اغلق الباب بكل الأقفال والمزاليج. ثم اسنده بطاولة ثقيلة.

حل صمت طويل، جعله يشك بحقيقة ما جرى له، لكن قبل أن يسرقه النوم، تسرب إلى سمعه صرير منشار، يقطع، بدأب، زجاج نافذة المطبخ المجاورة للممشى الإسمنتي.

* * *

قرأ الكاتب المقطع الأخير، عدة مرات، شعر خلالها

باضطراب متصاعد في أنفاسه، وحينما حاول البدء بمقطع جديد، ارتعش القلم بين أصابعه، تسربت إلى ظهره نوبة برد غريبة، أجبرته على النهوض من كرسيه، وارتداء روبه الشتائي، مضى في خطوات منتظمة داخل حجرته، ذهاباً وإياباً. كان السكون عميقاً حوله، إذ تجاوز الوقت الثالثة، زوجته وطفلاه يغطون الآن في اعماق طبقات النوم. ومن النافذة لاحت له البيوت الأنيقة المقابلة له نجوما مفروشة فوق سطح الهضبة المظلم. لم تكن فكرة هذه القصة واضحة لديه في البدء، بل هي كانت ثمرة تخطيط عشوائي، لصورة رجل، أنجزت في لحظة اكتئاب عابرة، إذ كعادته كان يُمسك بقلم فحمي، كلما شعر بالضجر، ليخط على صفحات دفتر كبير دوائر وأقواس ومثلثات، وعبر تداع حر ليده تتضح ملامح الأشكال الغريبة، أحيانا ينتهي بشخايبط أطفال وحشية، وأحيانا تظهر وجوه مثيرة فوق الورق، مهرجون، وقتلة، وحالمون. لكن الرسم الأخير الذي خطه كان مختلفاً عن غيره: هنا ظهر له، أول مرة، وجه حقيقي، تحمل ملامحه مزيجاً من عناصر متعارضة بعضها مع بعض: سقاء مفرط ممزوج بقسوة دموية، حب طفولي للعب مشدود إلى جدية قاتلة، إرادة حديدية وعبث هائل.. حينما كتب أول جملة في قصته، ظن بأنها ستقوده بعيداً عن الرعب الذي زرعه الصورة في نفسه، لكن قلمه قاد البطل تدريجياً إلى مخلوقه المخيف، ليقعه في شرك فخاخه الغريبة.

رجع إلى طاولته، سحب دفتر رسومه المكون إلى يساره. قلع الصورة الأخيرة، تمعن بها قليلاً، فاندفع الخوف في عروقه. مزق الورقة إلى قطع صغيرة، ثم امتدت يده إلى صفحات القصة القليلة، لتحيلها إلى كرة صغيرة.

في المطبخ أنجز الكاتب آخر وجود مادي لكابوسه: احرق قطع الصورة وصفحات القصة المعكوشة، ثم ملأ كأسه بالنبيذ، استعدادا للنوم. آنذاك، سمع دقات منتظمة، خافتة، على الباب، وحينما فتحه واجهه صاحب الكاسكيتة الحمراء، برفقة أربعة رجال، ينبعث الجحيم من أعينهم.

غبار الذهب

يتسرب، أخيراً، صوت أمه إليه، وسط همهمات الآخرين الخافتة، تظهر أمامه، بكامل عنفوانها، فتوقظ صورته فيه، تلك الرحلة التي جمعتهم معا، بين المدرسة ودكان الصائغ؛ بعد أن طلب المدير منه إحضار أمه معه، رافقته في اليوم اللاحق، وكم ظن أن إطرأً ينتظره بحضورها، لالتزامه الشديد، بتنفيذ أوامر المعلمين، لكن بدلا من ذلك، راح المدير يؤكد على عدم صلاحيته للدراسة؛ بعد أربعة أعوام، اكتشف معلموه، ظاهرة لم تقع يوما من قبل؛ كان ابنها يبتدئ في كتابة الكلمات من أواخر حروفها حتى أوائلها، وفي الحساب كان يجمع الأعداد ويطرحها، منطوقا من يسار الأرقام.

ها هي تقتاده، صامته، واجمة، مختنقة بعبرة، يلتفت إلى الوراء، بين لحظة وأخرى، ليراقب مدرسته وهي تبتعد عنه، دون أن يراوده أي إحساس بانفصاله الأبدي عنها.

يستفيق على أنامل ابنته وهي تمسح حبات العرق عن جبينه. يتطلع فيها مليا؛ كم تشبه "بهيجة" أمه. في الطريق من المدرسة إلى دكان الصائغ، لم يتبادلا كلمة واحدة، كان بإمكانه التقاط ما ظل يدور آنذاك في سريرة أمه؛ بعد كل التضحيات التي قدمتها له، ها هو يخذلها بهذه الطريقة المهينة، معرضاً إياها لسخرية الآخرين. بالمقابل، ظل منطوياً على نفسه، متجنباً مصارحتها، بأن أسلوب كتابته كان لإبهارها وكسب إعجابها به، وأن بإمكانه تبديل اتجاه قلمه إن هي أعطته فرصة أخرى.

تمرر بهيجة راحة يدها فوق شعره، فيغمره دفء طفولي. بينها وبين أمه صفات مشتركة كثيرة؛ كم حاول الأقارب والجيران ثنيها عن تنفيذ ما ثبت في رأسها، لحظة خروجها من المدرسة: ما الذي يمنع نقل ابنها الوحيد إلى مدرسة أخرى؟ بل أن بعضهم عرض مساعدته في تعليمه، لكنها أعطت كلمتها للصائغ، وانتهى الأمر؛ سيقوم ابنها بخدمته مقابل تعلم حرفته. وعندما سألوها عن سبب اختيار الصياغة له دون غيرها، قدمت إجابة واهية: كان الصائغ صديق المرحوم أبيه، ولا بدّ أنه سيعتني به مثل ابنه.

يرفع ذراعه ليلمس شعر ابنته، لكن قواه تخونه، لون شعرها الأحمر، شبيه بلون الذهب لحظة غليانه. قال الصائغ بعد انقضاء يوم على تشغيله: إنفخ، فراحت الدمامل البرتقالية تنفقع أمامه، وفوقها تصاعد بخار متألق بقوس قزح. بعد تجمد الذهب في قوالبه، أمضى الصائغ وقتاً طويلاً في صقل النماذج، الملمعة تحت أشعة الضوء النيوني، وقبل إغلاق المحل، أعطاه مكنسة وكيسا قطنياً.

لا بد أن تكون سمعته في المدرسة، وراء قرار الصائغ بإقصائه عن أسرار الحرفة، والاكتفاء بتشغيله خادماً، ولن تزداد أمه إلا قناعة بفشله الكامل. لن يحتج يوماً ضدها، بل سيظل دائماً يبرر ردود أفعالها؛ ألم تقاوم من أجله ضغوط أهلها لتزويجها ثانية؟ بل من أجله اشتغلت خادمة، دون أجر، لدى خياطة المحلة، كي تتقن حرفتها. كانت وسط الصعاب تُمني نفسها برويته طبيياً، مكافأة لتضحياتها، لكنها بدلاً من ذلك، حصدت خيبة مبكرة.

سينكمش، شيئاً فشيئاً، على نفسه، مسلماً بعجزه، ولن تثير
سخریات أصدقاء الصائع في نفسه أي غضب، بل وكأنهم
يتحدثون عن شخص آخر غيره. ولن تمر فترة طويلة حتى
يكفوا عن مضايقته. بالمقابل، سيصبح خبيراً في إعداد الشاي،
واستقبال الزبائن بشكل لائق. وقبل إغلاق المحل، سيقوم
بترتيبه على أحسن وجه، وأخيراً، كنس أرضيته كنساً دقيقاً.

تعيده الأصوات والعبرات الخافتة إلى حجرته. ها هما أبناه
يجلسان حوله، يمسك كل منهما بإحدى كفيه. تنتهي إلى سمعه
حشرات أنفاسه الثقيلة، كأنها خفقات طائر محبوس في قفص
صدره. يسترجع صورة ذلك العصفور المطلي بماء الذهب،
والواقف فوق ساعة جدارية ذات رصاص ذهبي، نابض.
سيصبح مسح ذلك التمثال طقساً يومياً له، سيرى العصفور
الذهبي مراراً في أحلامه، محلقاً بين جدران المحل الواطئة،
باحثاً عن منفذ للهرب.

تقترب بهيجة منه، فيفسح ابنه الأكبر، لها مجالاً للجلوس
جنبه. حضورها يمنحه قوة غريبة. منذ رحيل أمها وابنته
تستحوذ على مفاتيح روحه. كان مرضه الأخير فرصة كي
تتفرغ له وحده، دون أسرتها.

كيف سيخبرهم بسرّه؟ وكيف سيصدقونه؟ هو الذي لم يتخذ
يوماً أي قرار، ولم يعيش حياته إلا لتنفيذ طلبات الآخرين، ينجح
بإخفائه عنهم كل هذه السنوات. وهل ستسامحه بهيجة لإخفائه
عنها حتى هذا الوقت؟ منذ البدء فكر بمكاشفة أمه بالسر، لكنه
خاف من سخريتها وازدراءها، فطواه بين جوانحه.

ستمر عليه سنوات، مكرّونا في زاوية المحل، يتابع مسلوب

الإرادة أوامر الصائغ: أمسك لي هذه القطعة، ارفع هذه العتلة قليلا، علق هذه الصورة هناك... ولن يشعر بذاته إلا شيئا معتما وسط أشياء براققة، حتى عثوره على طلسم السر.

يعيده هفيف المروحة السقفية إلى حجرته، يفتح عينيه، يواجهه الصائغ، جالسا وراء طاولته، مستغرقا في النقش على حافة سوار جديد. ينهض من سريره، يحمل مكنسة، ويبدأ بتنظيف الأرضية. هنا وهناك تلتمع ذرات الذهب المتطايرة، من فوق الصفيحة الموضوعة أمام الصائغ. يختفي الآخر من المشهد. يسحب صحنًا عميقًا مملوءًا بالماء، يُفرغ محتويات كيس الكنس فيه، يحركه بانتظام، قبل نقل مائه إلى قدر كبيرة تدريجيا، يظهر له نجوم قليلة، منبثة فوق قاع الصحن.

مثل النمل في بطنه ودأبه، سيراكم ذرات الذهب، يوما بعد يوم، شهرا بعد شهر، عاما بعد عام؛ لا أحد منهم يعلم بفعله السري. معه يشعر زوار المحل بالقوة والنجاح، وبحضوره تنفتح قرائحهم في إطراء أنفسهم، وانتقاص غيرهم، ولن يجدوا صمته وهزات رأسه إلا تعبيرًا عن الموافقة. ستصبح حياته بينهم قناعا لحياة أخرى مخفية عن أنظارهم؛ مقابل ذلك سيزداد انشدادهم إليه. كم أبدى كثير منهم استعدادهم لمساعدته في فتح دكان خاص به، وكم اعتبر الصائغ رفض مساعدته لهذه العروض تعبيرًا عن إخلاصه له.

هناك، فقط، في سرداب البيت المعتم، تستيقظ مغاليق روحه، على شذرات الذهب المتوقدة تحت ناظريه، بعد عزلها عن أتربة النهار، وهناك، فقط، يقترب تدريجيا صوب هدفه الكبير؛ أن يثبت لأمه كفاءته، بوضع كنزه السري بين يديها.

وكم كان متأخراً، عن بلوغ مرامه؛ حينما امتلأ الكيس القطني
بنثار الذهب، كانت أمه بلا ذاكرة.

تتسرب همهمات الآخرين إليه، مرة أخرى؛ يتسرب الخدر،
أكثر فأكثر، في عروقه؛ تضج الصور والأفكار، أكثر فأكثر
في رأسه، متشبثة، بعناد، بوهم اللحظة.

كم تمنى بعد رحيل أمه أن يغير حياته جذرياً، أن يبتدىء في
مكان آخر، مع أناس آخرين، وحينما قرر التخلي عن عمله،
سكنته الكوابيس دون رحمة.

سيستأنف عادته، ثانية، تحت وطأة حاجة قسرية مجهولة،
وكان جميع ذرات الذهب الضئيلة فعل طقسى، يقوم به لذاته،
ولن يمنحه اليوم، الذي ينتهي دون القيام بطقسه، إلا غمّاً ثقيلاً.

توقظه قطرات الماء المسفوحة فوق شفتيه، تتغلغل برودتها
بين خلايا جسده، فتستحضر، لأول مرة، عالم الحواس
السحري؛ طعم الشاي الساخن والجبن المملح صباحاً. رائحة
الأحماض الحادة مختلطة برائحة الشواء، ملمس كيس الذهب
بين أصابعه. كانت العتمة في السرداب حاجزاً لرؤية كنزه،
حين أفرغه في كيس أكبر.

إنه الآن أمامه، يقبع خلف سجادة الحائط؛ أربع خطوات
تفصله عنه. منذ تركه محل الصياغة، وهو يؤجل، كل يوم،
فتح كنزه؛ في الليل تمتلئ أنفاسه بمشاعر الإثارة والفرح،
لفكرة اللقاء بكثيب الذهب، وحينما يحل الصباح، يقصي تنفيذ
قراره إلى اليوم اللاحق.

تمسّد ابنته شعره الأبيض، غضون جبهته وتجاوّد وجهه.

توقُّ واحدٌ يعصف به خلال تلك اللحظات: أن يلامس بأصابعه المتبيسة حمرة ذهبه.

يحشد كل ما لديه لتنفيذ رغبته: تقلصات عضلات وجهه، انتفاض جسده، حركة شفتيه، وحينما يدرك الحاضرون رسالته، تجره خيوط العتمة إلى أحضانها.

يفتح عينيّه، فيواجهه الجدار عاريا من سجادته، تبرق أمامه، واللحظة، صورة البدوي وحبيبته المختطفة، على ظهر حصان واحد؛ بدلا من ذلك، هناك فجوة صغيرة، كان قد صنعها بنفسه لإخفاء كنزه. ها هو الكيس بين يدي ابنه الأكبر، يراقبه الجميع بصمت واندھاش، وهو يتقدم مرتبكا صوب أبيه.

وسط الحجرة، يقع المحذور الذي لم يفكر يوما به: بعد مرور سنوات على كنزه بعيدا عن الضوء، ينغرز العث، شيئا فشيئا، بين خيوط الكيس القاسية، ليحولها إلى رماد. ها هو الذهب يسقط قدامه، لتدفع به المروحة في كل الاتجاهات؛ صوب الوجوه، صوب السقف، صوب الأغذية، صوب الجدران، وعبر النافذة المفتوحة، صوب السماء الزرقاء.

دروس قديمة

قال أبي، قبل خروجه من البيت، مهدداً: "إذا عدتُ هذا اليوم ووجدته هنا فسأقطّعه أمامكم"، ولم يكن أي منا بحاجة إلى قدر إضافي من الفطنة، ليدرك مَنْ المقصود؛ هناك في قفصه، كان البيغاء واقفاً على أرجوحته، مغلفاً بصمت مهيب، غير مدرك لما ينتظره هذا المساء.

ولغضب أبي على "سُنبل" أسبابه الوجيهة، إذ أنّ ما سمعه منه، كان كافياً لسلخ جلده فوراً، لكن طبيعة أبي الهادئة، تتعارض مع ردود الفعل المباشرة، خصوصاً أمام أبنائه، وهذا ما دفعه إلى كظم غيظه طيلة ساعات الليل، وعند حلول الصباح، أخبرنا بقراره القطعي، ولم يتح لنا حاجباه المرتفعان ونبرة صوته المتوقعة أي فرصة للاحتجاج أو التوسل.

لا بدّ أن ندما شديداً أصاب أبي، على اقتناء ذلك البيغاء، كان الثمن الرخيص الذي طلبه البائع، والجمال الراقي الذي يتمتع به ذلك الطير في قفصه، عنصراً إغراء لإتمام صفقة الشراء سريعاً، بدون الاستفسار عن مالكي "سُنبل" السابقين، ولم يقرأ في صمته وكبريائه الأرستقراطيين شيئاً سوى البراءة والتهذيب العالين.

عليّ أن أضيف شيئاً آخر غاية في الأهمية؛ على الرغم من عنايتي الشديدة بسُنبل، وانشغالي الدائم بإطعامه، طيلة فترة بقائه بيننا، فإنه لم يواجهني إلّا بالتجاهل؛ مقابل ذلك، كان يحتفظ بكل الحب لأخويّ الكبيرين؛ معهما، كانت أساريه تتفتح بشكل غريب، فاذا بذلك الأخرس الأبدي أمام الآخرين،

يتحول إلى مهرج محترف، حيث يمضي سارداً لهما، وبصوت منخفض، نكاتا وحكايات بذيئة، لا أول ولا آخر لها. أحياناً، كان أخويّ، اللذان ينامان في نفس الغرفة، يغلقان الباب وراءهما، فينطلق البيغاء في تقديم دروسه إليهما، فاتحاً أعينهما على أسرار الكبار وحقائق الأشياء المخفية وراء المظاهر الخادعة، وكنت أنا من خلل ثقب الباب أراقب الثلاثة السعداء، فاختنق بالغضب والوحدة. سمعت أخي الأكبر يخبر أحد أصدقائه، عن أصل بيغائنا، الذي قضى صباه في أحد مواخير البصرة، ولم أفهم ما تعنيه تلك الكلمة آنذاك.

دقت الساعة الرابعة، فتسرب الخوف في عروقي. إنه وقت وصول أبي إلى البيت، كان البيغاء غارقاً في أحلام يقظته. اقتربتُ منه ببطء، ولأول مرة، لمحته يبتسم لي، ويوشوش في أذني: "أنا أحبك أكثر من الجميع"، فحرضتني كلماته على الانشداد إليه أكثر فأكثر. استطعت أن أشاهد في مخيلتي، رأسه الأخضر منفصلاً عن جسمه الأزرق، حيث تسرّبلت قوادمه ببقع الدم البشعة. وفي لحظة رنين جرس الباب الخارجي، مددت بيدي كليهما، لأمسك برقبتَه بقوة، فامضي صوب البرّاد. هناك في زاوية مهملة داخل خزان الثلج، دفعت بالبيغاء، ولم يتح له الفراغ الصغير والمفاجأة برد فعل أحرق. وحينما قابلت أبي وجهاً لوجه كان البرّاد مغلقاً ولا اثر باق من ريشه على الأرضية يوشي بمخبئه.

في الصباح وقبل أن تستيقظ أُمي، أخرجتُ "سنبل" من البرّاد، ووضعتَه في حقيبتي المدرسية، وكم ساعدني جسمه المتخشب في إنجاز تلك المهمة، إذ ظل ساكناً طيلة فترة تغيير ملابسِي وتناول الفطور مع الآخرين. على وجه أبي كان بإمكانني تلمّس علائم الراحة لاختفاء البيغاء من قفصه.

وكان حل مشكلة ما، يقود إلى خلق مشكلة جديدة؛ في طريقي إلى المدرسة، أدركت ما ينتظرنى اليوم مع الأستاذ زياد، إن هو اكتشف ما أخبئه في حقيبتى. كان معلم التاريخ والجغرافيا مثلاً أعلى يحتذيه المعلمون الآخرون في فرض النظام داخل غرفة الدرس، وبالنسبة إلينا، نحن التلاميذ، كان ممثلاً للربح النقي، الذي لا يحضر إلا في كوابيسنا.

حينما دق جرس الحصة الثالثة، تسلل الشحوب إلى وجوهنا، وفي رؤوسنا الصغيرة راح نفس السؤال يتكرر: أي عصا سيجلبها اليوم؟ في غرفة استراحة المعلمين، يحتفظ الأستاذ زياد بخزانة خاصة لعصيه، وحالما يقرر أن وقت العقاب قد حان، سيرسل أحد التلاميذ لجلب واحدة، ذات رقم محدد. لكل عقاب عصا خاصة: الضوضاء التي تسبق وصول المعلم، تعالج بعصا التوت، الفشل في الوصول إلى درجة النجاح الدنيا، يعالج بعصا الخيزران، وللمناسبات الأخرى، هناك عصي الرمان والتفاح والبرتقال.

كان الدرس حول الثورة الفرنسية: "من هو قائد اليعاقبة؟" "روبسبير"، "أحسنّت".

"من هو الملك الذي أعدمته الثورة؟" "لويس التاسع عشر"، "لويس السادس عشر.. لن تكافأ إلا بعصا واحدة". "ما اسم زوجة الملك؟" "ماري أنطوانيت"، "ممتاز"، "وما اسم آلة الإعدام التي ابتكرتها الثورة؟" "المقصلة"، "افتح عينيك حينما تقرأ ثانية، والآن.. ماهي اسم الآلة؟" فرددنا مبتهجين، تحت وطأة مزاج المعلم الرائق: "المقصلة". وكخراف نسيت، لحظة، ما ينتظرها، رحنا نجيب، بحمية، على كل سؤال يطرحه المعلم، دون انتظار اختياره لاحدا. فجأة ارتفع صوته بارداً،

محشرجاً: "سكوت"، وحينما التفتنا إليه، طالعنا ذلك الغضب الموشى بابتسامة مَرَضِيَّة، كانت يده تحرك العصا في الهواء، وعينه تراقبان من وقت إلى آخر نهايتها الحرة. قبض الخوف على أنفاسنا، وحل صمت قاتل داخل الحجرة، بانتظار معجزة تنقذنا من بطش أستاذنا الرهيب.

فجأة ارتفع صوت المعلم، لكنه هذه المرة من جوف طاولتي، حيث تركزن محفظتي: "سكوت". تلّفت الكل بحثاً عن المصدر، لكن عيني المعلم الراصدين لحركاتهم، بعثت القشعريرة في أجسادهم، وجعلت أبصارهم مثبتة في اللوحة، انشدت أذرعهم فوق صدورهم، تعبيراً عن الخضوع المطلق له. ردد الأستاذ زياد ثانية: "سكوت"، فترجّع صده ثلاث مرات، من محفظتي المفتوحة. انفجر التلاميذ بضحكة، هستيرية، مختنقة. انطلق البيغاء بترديد أسئلة معلمنا وملاحظاته، دافعا إيانا إلى حالة جنون مشتركة. لأول مرة، نكتشف كم كان صوت الآخر مضحكا، كانت كلماته تخرج مختنقة عبر أنفه.

لا أتذكر كم استغرق وقت انغمارنا بذلك العبث المجنون، كنا خلاله نتنقل بين ضفتي الخوف والمرح الصاخب بسلاسة، كان بإمكاننا مشاهدة التغيرات على وجه المعلم، إذ راحت عضلاته تتحرك بدون ضابط، لتحفزنا أكثر فاكثراً على الانفلات من قبضته.

تسلل "سُنبل" أخيراً من جبّه، لينطلق محلقاً في فراغ الحجرة، رفع الأستاذ زياد يديه هلعاً، ومضى في ترديد تعاويذ غريبة.

أذكر بعد هروب معلمنا، كيف استغل البيغاء تلك الفسحة

القصيرة من الوقت، ليقراً علينا كل تلك الدروس التي كان يرددها خفية في أذني اخوي. وحال إكمال خطابه، تسلل من النافذة ليندفع بالطيران الجذل، مختفياً تدريجياً في فضاء ذلك النهار المشعشع بالضوء.

* * *

حضرني شريط الأحداث، كلحظة برق عابرة، في مدينة تفصلها عن مدرستي مسافات شاسعة. كنت ماشياً بين طاولات سوق الأحد المفتوح، حيث فرش الناس فوقها أشياءهم القديمة؛ كان رذاذ المطر يتذرى في الهواء الدافئ، ليمنح المكان بعداً خرافياً رائعاً: شبان وشابات يبيعون ما تركه الآباء وراءهم من أشياء بالية، كهول وشيوخ يعرضون أسطوانات وألبومات وملابس رياضية للعابرين. وسط ذلك المناخ الحالم، المحمل بالذكريات، جاءني صوت البغاء، ليوظ تلك اللحظة النائية من سباتها. اقتربت من الحشد الواقف أمام طولة، تسربت إلى سمعي تلك الدروس التي لم يفقه الحاضرون منها شيئاً، بل هي بدت لهم ضجيجاً مذبذباً يثيره ذلك البغاء. اخترقت بصعوبة حاجز الجمهور، مسكوناً بلهفة حارقة للقاء، لكنني لم المح في الققص سوى ببغاء أبيض اللون، اصغر من سنبل بكثير. انتابني آنذاك شك عديم الملامح. شك بماذا؟ بلحظة الحاضر المعاشة أم بتلك اللحظة الغارقة في دهاليز الزمن الخيالي؟

شرق غرب

وفق متناقضة زينون الإيلي الشهيرة، يحتاج سهم أخيل المنطلق من نقطة (أ) أن يقطع نصف المسافة قبل وصوله إلى نقطة (ب)، بالمقابل عليه، أولاً، أن يتجاوز نصف نصف المسافة الفاصلة بين (أ) و(ب)، وباستمراره في تنصيف المسافات، يصل زينون إلى استنتاجه الشهير: سهم أخيل لن يتاح له التملل من نقطة (أ). يعلق حسن كريم على هذه الفكرة ساخراً: الرياضيون هم الاستثناء الوحيد الذي لا ينطبق عليه مبدأ انعدام الحركة؛ على سبيل المثال، يتحرك، لاعبو كرة القدم، من اليمين إلى اليسار، ليدخلوا الكرة في المرمى، على الرغم من العقبات التي يضعها أمامهم أحد عشر خصماً، وفي حالة تسجيل هدف واحد، فقط، يكون سهم أخيل قد وصل إلى نقطة (ب).

تشابه، كثيراً، حركة حسن بين الشرق والغرب، مع حركة سهم أخيل: قبل مغادرته حدود العراق، كان الغرب متلبساً روحه كلياً: في سن مبكرة، انكمش حسن على نفسه، تحت وطأة الهلع الذي أصابه من تلاميذ صفه الجدد، بعد انتقال أهله إلى مدينة أخرى، لكنه اكتشف، مع مرور الوقت، بديلاً مناسباً لمزاجه الزئبقي، يستطيع التواصل معه بسلام؛ في المجلة الإنجليزية العتيقة التي أعطاها له عمه، كانت هناك صفحة مخصصة لعناوين صبية يرغبون بالمراسلة، وكانت مساعدة عمه في كتابة عدة رسائل كافية كي تطلق طاقاته الكامنة؛ خلال شهر واحد، وأمام دهشة الجميع، كان بإمكانه استرجاع

أي صفحة من تلك المجلة، حال إخباره برقم تسلسلها، على الرغم من جهله بمعاني أكثر فقراتها.

شيئاً فشيئاً، بدأ الغرب يتسرب إلى حجرته الصغيرة عبر الصور الملتقطة، لأصدقائه البعيدين، لعوائلهم، لبيوتهم، لمدنهم الأنيقة. قام حسن بتعليقها على جدران حجرته، برفقة تلك الصور المقطعة من مجلات سياحية، كان بعض مراسليه يبعثونها له لتشجيعه على زيارتهم.

تدرجياً، راحت تلك الصور تقتحم أحلامه، كخلفية لها: سطوح البيوت الهرمية بدلا عن المستوية، الكاتدرائيات العملاقة بدلا عن المساجد، الثلج والغيم الثقيل بدلا عن الشمس.

اكتشف حسن، بعد فترة قصيرة، جهل أصدقائه المطلق ببلاذه؛ كم تكرر استفسارهم، عن عدد الجمال التي تمتلكها عائلته، أو عدد زوجات أبيه. وفيما اذا كان بيته مصنوعا من القصب أو من الوبر.

بمساعدة كتب إنجليزية قليلة، كان عمه قد اشتراها من بيروت، راح حسن يبني عالما متخيلا عن محيطه، يتوافق مع تصورات أصدقائه المسبقة؛ بفضل كتاب ريتشارد بيرتون؛ "الليالي العربية"، المقتبس عن "الف ليلة وليلة"، أقام آصرة بين الماضي والحاضر، وعلى ضوء ذلك استرجعت بغداد أسوارها القديمة، وعادت سفن السندباد البحري تتهدى في مياه دجلة، متألفة بين لهيب المشاعل وإيقاعات الدفوف. وكم نفعه كتابا ولفريد ثيسجر حول الأهوار والصحراء العربية في تضخيم الصورة لأصدقائه، فأبوه، الذي لم يكن سوى موظف صغير، أصبح صاحب ثلاثين جمل، ينقل على أسنمتها أحمال

تجارته عبر الصحاري الشاسعة، وكم من مرة رافقه في رحلاته.

لن يكون غريباً، أن ينسى حسن بعد إقامته الطويلة في الغرب، أسماء أخوته وأقاربه، فلعبة الكذب البريئة، التي ابتدأها مبكراً، حوّلت حياته المعاشة تدريجياً إلى وهم، وحتى حين يحاول تذكر أحداث مرت به بين أهله، فهي لن تأتي إليه إلا كأطياف أحلام، ذات خلفية غريبة، تارة، وتارة أخرى، ممتزجة بتفاصيل "الليالي العربية".

كانت هيلين أكثر أصدقائه إخلاصاً، إذ وازبت على تراسلها معه، وعلى الجدران علق حسن صورها، المنتمية إلى فترات مختلفة، بعضها يرجع إلى الطفولة أو المراهقة، وبعضها الآخر إلى أوائل الشباب. وحينما دعت لزيارتها لم تطلب منه أية هدية سوى قطعة حجر صغيرة من بابل.

منذ لقائهما الأول، برزت الفجوة بينهما: بالقدر الذي كانت، هيلين، مشدودة إلى ماضي الشرق كان حسن مشدوداً إلى حاضر الغرب. ستحدثه عن حافظ الشيرازي وشعره الصوفي طويلاً، مسترجعة بعض قصائده المترجمة عن ظهر قلب، وفي بيتها انتشرت على الجدران آثار الشرق: مزيج من صور ورسوم وتمائيل منتمية إلى حقبة تاريخية مختلفة؛ القيثارة السومرية والثور المجنح مقابل الآلهة شيفا وبوذا، الزخرفة العربية بجوار النقوش الفرعونية. عبّر حسن عن إعجابه: "بيتك متحف حقيقي"، لكنه شعر في أعماقه بانقباض وانجذاب معاً.

في لقائهما الأول، اكتشف حسن بان رحلته إلى الغرب لم

تبتدى بعد، على الرغم من شعوره الراسخ بالألفة، ولن يكون انشداد هيلين إليه، إلا عبر تلك الغلالة الرومانسية العازلة بين الواقع المفترض والواقع الحقيقي. وكأنها بارتباطها به ستمنح، لمصادفة حصولها على عنوانه، والتواصل الطويل معه، مغزى قدرياً؛ هناك وراء العالم الظاهري، عالم آخر تحكمه المثل، ووراء الفوضى يختفي، تخطيط متقن الصنع.

بعيدا عن عالم زوجته، سيبنى حسن كريم عالمه الخاص: اذا كانت هيلين مشدودة لغموض الأبدية وأوهامها، فسيكون هو مشدوداً إلى سحر اللحظة وعذاباتها.

متحررا من متطلبات العيش، سينصرف كلياً إلى دراسة التصوير، وفي بيت هيلين الذي ورثته عن جدتها، ستكون لديه غرفة مخصصة للغسل والتحميض.

مع مرور الوقت، استحوذ البورتريت على كل اهتمامه؛ بين لوحة راقصة الباليه لديغا، ومومسات تولوز لوترك، اكتشف حسن أسلوبه؛ لحظة الجمال الجامعة بين ما هو سماوي وما هو أرضي، أو الجمال بقطبيه المتناقضين: الحسي والمجرد.

عبر أحد معلميه، دخل عالم الأزياء والبورنو غراف كمساعد مصور أولاً، وعبر جولاته بين مسارح الرقص وعالم المومسات، راحت صورته تستأثر باهتمام بعض الصحفيين ووكالات التصوير، وكان فوزه بجائزة إحدى المسابقات الشهيرة، نقطة تحول نحو الاندماج في عالم الإعلام. لم تكن الصورة الفائزة، إلا ثمرة مصادفة: في لحظة تهيؤ لالتقاط صورة راقصة الباليه، اشتعل ضوء في وجهه. وفي مختبره، اكتشف تفكك الراقصة إلى مجموعة راقصات يدرن في حلقات

متداخلة، وكم ساعد الأسود والأبيض، على تعميق الفوارق بين الظلال المتداخلة مع طبقات الساتان الأبيض. بالتخلص من كل الزوائد في الصورة السالبة، وبالعمل الدؤوب على نقل رؤيته، استطاع حسن أن يمسك بتلك اللحظة المتشظية، في أبهى تحقيقاتها.

ظل زملاء حسن يرونه شخصاً محبباً وغريب الأطوار، ولعل السبب يكمن في حماسته الكبيرة للأصدقاء؛ سيبقى، سنوات، حريصاً على دعوتهم إلى بيته عند كل عطلة أسبوع، على الرغم من تدمير هيلين الصامت. وفي لقاءاته الأخرى معهم كان المبادر بدفع مصاريف الشراب والطعام، بطريقة متطرفة، مأخوذاً بسحر اللحظة المعاشة معهم.

كان الغرب الحقيقي يتجلى له بأبهى صورهِ في غرفته المعتمة، حينما تنبجس فجأة أمامه ملامح فتيات الموديل، وسط صفحة الماء المترجرج، لتبدأ بالتماسك شيئاً فشيئاً بين أصابعه المرتعشة: ها هو الجمال الأنثوي، يتفكك إلى مئات من اللقطات، تحت نثار الضوء الأحمر، ليجره إلى متاهاته القاسية؛ بين وجهه هناك ثالث، بين ثدي وآخر هناك ثدي ثالث، وحينما يجد حسن نفسه موشكاً على الانفجار، سيهرب صوب عالم الباليه، حيث تصبح الأجساد وسائل إيمائية بحتة.

كم كانت الفتيات، يجدن في حضوره، عنصر تشجيع؛ إذ على الرغم من عينيهِ الجاحظتين دائماً، ونكاته الخرقاء، هناك ابتسامة طفولية معلقة فوق وجهه، تمنحنهن شعوراً بالألفة، وكأنهن يواجهن خلف آلة التصوير، راهباً نصف أبله. سيمضي ساعات صامتاً بينهن إلى درجة نسيان وجوده، وفي

لحظة البدء بالتصوير يغمرهن توق غامض للاندماج بعدساته. مع ذلك، لن تنجذب أي منهن إليه يوماً، إذا استثنينا تلك الخدع التي كان يسقط فيها أحياناً، حين تقوم واحدة منهن بسلب عقله، عبر التظاهر بالانشداد إليه، فيقوم آنذاك بإغراقها بالهدايا، ولن تستطيع الإفلات، من مخابراته المتكررة، من قصائده ووروده المرسلة إليها بانتظام، إلا بعد زجره بشدة. سيتجنب حسن هذا الفخ المفتوح بعد عدة تجارب فاشلة، ليرضى بتلك العلاقات البديلة، بنساء أكبر سناً، يعملن مع الفتيات: مدربات رقص، مصممات أزياء أو غيرهن، وكأنهن، عبر ممارسة الحب معه، يقمن بدور الوسيط بين فيض أحلامه وبين فتيات صوره.

لم تحتج هيلين يوماً عليه، ولم يبذل هو أي جهد لاكتشاف التغير في أفكارها، لكنها في الذكرى العشرين لزوجهما، أخبرته بقرارها الحاسم: ستهاجر إلى أستراليا حال الانتهاء من معاملات الطلاق وبيع البيت.

سيكتشف حسن تدريجياً كم هو مشدود إلى عالم هيلين، بعد انتقاله السريع إلى سكن ضيق، وبعد اختفائها كلياً من حياته. قبل سفرها انتزعت منه كل شيء يمت لها بصلة: رسائلها وصورها القديمة إليه، هداياها له، صورهما المشتركة، وفي حديقة البيت قامت بحرقها، وسط الشواء وأوراق الخريف الجافة. قالت له، بنبرة ساخرة، حينما احتج غاضباً على تصرفها: "إنها طقوس العبور".

كانت تحضر في تيار أفكاره، كجملة موسيقية متكررة، وسط فراغات صامتة طويلة، مخلقة وراءها وحشة ثقيلة.

ينتابه، أحياناً، شك بحقيقة ارتباطه بها، وأحياناً، شك بحقيقة
اختفائها الأبدي عنه.

للخروج من دوايمته، راح حسن يتنقل من بيت إلى آخر،
خالقاً أسباباً واهية، تتعلق بطبيعة المساكن أو الأحياء نفسها:
الرطوبة الشديدة، ضجيج السيارات العالي، أو حتى كثرة
الكلاب في الشوارع، لكنه كان يقيم، ودون وعي منه، حالات
ألفة قصيرة المدى مع المكان، ليندفع في هدمها بعنف، عبر
استئجاره سكناً جديداً.

في تلك الفترة، بالذات، بدأت علائم الانكسار تطفح على
وجهه، ممزوجة بغضب مكتوم، وفي تلك الفترة، بدأ بإقامة
أواصر سطحية ببعض الشرقيين، ولن يكف حين التقائه بأحدهم
عن التشكي، من تعاسة الطقس، من الغيوم الجاثمة فوقهم، من
أصدقائه الغربيين، الذين لم يبادر أي منهم بدعوته، يوماً، إلى
بيته.

لم يحضر الشرق إليه، عبر الحنين المحض، بل عبر "بول
كُلّي"، ورسومه في تونس؛ بين يوميات الرسام، اكتشف حسن
تأثير القيروان عليه، هناك اكتسبت المآذن والأشجار والبيوت
تحت فرشاة "بول كُلّي" أبعاداً لونية جديدة، وهناك، أفصح عالم
الرسام عن مكنوناته المضمرّة، أول مرة.

في رحلته القصيرة إلى تونس، سيتابع حسن طريق "بول
كُلّي"، متنقلاً بين العاصمة، مدينة الحمّامات، ثم القيروان،
وهناك ستستيقظ "الليالي العربية" فيه ممزوجة بضياء الشمس
الساطع، وبعد عودته، سيقوم، فوراً، بطبع صورته.

على جدران غرفة نومه حصلت القطيعة مع الحاضر

بضربة واحدة: حال استيقاظه ذات صباح، اندفع صوب نسائه، ممزقا إياهن إلى قطع صغيرة.

في القيروان، توطدت علاقته بصاحب الفندق، وفي بيته، تذوق حفاوة العائلة به، حيث كان الكل يسعى لإرضائه، ولن تكف زوجة المضيف، عن الإلحاح عليه في تجديد طبقه بأطعمة أخرى.

كانت لحظة إشراق، حينما استيقظ الماضي، فجأة، في روحه، لا كأحداث مُعاشة، بل كشعور عسير على التعريف، جعل الأشياء حوله أليفة بشكل خارق للمألوف: روائح الفواكه والخضار القوية، ألوان الأثاث والزرابي، احتشاد الغرف بالناس والأشياء.

انه ماض أسطوري، خال من الرتابة والبشاعة، لازمني، ذلك الذي استرجعه حسن كريم، في القيروان، لئيسقطه على حاضر آخر، في مدينة نائية أخرى.

مع صاحب الفندق اتفق على إرسال عدّة عمله وبعض أثائه إليه أولاً، ليلحق هو بها بعد شهر واحد، وعند عودته، راح حسن يبشر بأعاجيب الشرق: الشمس الحاضرة دائماً، تحرر الفرد من رسائل البنوك المملة، والانفلات من قيود الوقت وتقنياته. في القيروان، سيفتح أستوديو للتصوير، وسيتحمل صاحب الفندق كل التكاليف، مقابل نصف الأرباح.

كانت فترة تصفية أموره، جد قياسية، إذا أخذنا بنظر الاعتبار عدد السنوات التي قضاها في هذه المدينة؛ ها هو بعد مضي ثلاثة أسابيع على عودته من تونس، إنسان حر تماماً، غير مقيد بأي شيء عدا حقيبة ملابس صغيرة، وبطاقة سفر

باتجاه واحد، وفي اليوم السابق لتسليم البيت ورحيله صوب القيروان، حدث ما لم يكن في الحسبان.

حينما استيقظ على جرس الباب، ظن أن شخصا قد ضل طريقه إليه، لكنه بدلا عن ذلك شاهد، من النافذة، أحد المتعهدين الذين كان يتعامل معهم، واقفا بإصرار أمام العمارة. بعد ارتشافه جرعتي قهوة من كوبه، بادر الآخر بشرح أسباب ظهوره المبكر: غداً سيكون هناك عرض ملابس عالمي، والمصور الذي كان مفترضا أن يقوم بتغطيته، أصيب بجلطة قلبية، وما أن ذكر له أسماء عارضات الأزياء حتى راح يخفق قلبه بعنف.

برر حسن موافقته على العرض، للأجر السخي المقدم له، وكم هو بحاجة للنقود في بداية استقراره هناك. ولم تكن سوى مصادفات متآمرة، تلك التي جعلت عددا كبيرا من الوسطاء يتساقطون عليه بعروضهم، بعد انقطاعهم عنه سنوات كثيرة: وجوه وأجساد فتية لم يرها من قبل، وانجذاب تدريجي صوب اللحظة المتألقة.

استخدم في البدء بعض الأجهزة المستأجرة، لكنه اضطر في الأخير إلى شراء عدة العمل كاملة. كانت صور الفتيات تغزو، دون إرادته، لا جدران شقته، فحسب، بل سريره وخزانة ملابسه ورفوف كتبه، ولم يدرك عدد السنوات التي خلفها وراءه منذ إرسال عدة عمله القديمة إلى تونس، إلا عند استلامه إشعارا من البريد بعودتها إليه ثانية.

وصلته بعد عدة أيام، رسالة من ابن صاحب الفندق يُعلمه فيها بموت أبيه، وأنه سيقوم بزيارته في الشهر اللاحق، وكم

يأمل أن يساعده حسن على الاستقرار في إحدى مدن الغرب.
كان يعيش حياته الحقيقية، آنذاك، في غرفته المعتمدة،
كلحظات مجمدة فوق صور فتياته حال ظهورهن وسط الماء.
إذ تركت سنوات انفصاله عن زوجته، أخا ديدها فوق روحه،
فبدا كأنه شيخ متآكل، لا يثير في النساء شيئا سوى الشفقة. كان
يقضي معظم أوقات فراغه في شقته، متجنباً الآخرين قدر
الإمكان، إلا عند حاجته القصوى لأحدهم.

شعر حسن حال الانتهاء من قراءة الرسالة، بانقطاع
أواصره مع الغرب دفعة واحدة، وإن قوة هائلة تدفعه نحو
العودة إلى الشرق، دون تحديد مسبق للموقع. كانت فكرة
ظهور ابن صاحب الفندق في شقته تدفع بالهواء للانحباس أكثر
فأكثر في صدره.

أمام نسخة خارطة من القرون الوسطى، معلقة على أحد
جدران المطبخ، أغمض عينيه، ومد سبابة يده اليسرى فوقها
قليلاً. عند النظر إليها، ظهر إصبعه مثبتاً فوق "سمرقند".

غدا سيرحل إليها، تاركاً وراءه عدّة الشغل عند أحد
الأصدقاء، كي يبعثها له، حالما يستقر به المقام في بلاد الخمر
وأشعار الرباعيات.

صدر للمؤلف

1. "العبور إلى الضفة الأخرى" (قصص)، عام 1992، عن دار الجندي، دمشق - سوريا. صدرت النسخة الرقمية عن "ألف ياء 2025 alfyaa.net"
2. "أحلام الفيديو" (قصص)، عام 1996، عن دار الجندي، دمشق - سوريا. صدرت النسخة الرقمية عن "ألف ياء 2025 alfyaa.net"
3. "رمية زهر" (قصص)، عام 1999، عن دار المدى، دمشق - سوريا
4. "خيانة الوصايا" (ترجمة)، دراسات نقدية لميلان كونديرا، عام 2000، عن دار نينوى، دمشق - سوريا
5. "مفكرة بغداد: يوميات العودة إلى مسقط الرأس" (كتاب يوميات)، عام 2004، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت - لبنان
6. "كوميديا الحب الإلهي" (رواية)، عام 2008، عن دار المدى، دمشق - سوريا. صدرت النسخة الرقمية عن "ألف ياء 2025 alfyaa.net"
7. "العبة الأقنعة" (قصص)، عام 2008، عن دار دلمون الجديدة، دمشق - سوريا
8. "حين تغيرنا عتبات البيوت" (مقالات)، عام 2021، عن دار دلمون الجديدة، دمشق - سوريا
9. "جاذبية الصفر WEIGHTLESSNESS" (رواية)، عام 2023، عن دار دلمون الجديدة، دمشق - سوريا. صدرت النسخة الرقمية عن "ألف ياء 2025 alfyaa.net".



لؤي عبد الإله

- كاتب عراقي وُلد في 2 كانون الثاني 1949 في بغداد. قضى سنوات دراسته الابتدائية والإعدادية متنقلاً مع أسرته بين قضاء الحويجة في محافظة كركوك، ومنطقتي أبو غريب والزعفرانية الأولى الزراعيتين، وذلك بسبب تنقل والده عبدالاله أحمد محمد الذي كان يعمل موظفاً في وزارة الزراعة.
- أهم هذه المحطات كانت تلك التي قضاها في الزعفرانية الأولى، على أطراف بغداد، وهي منطقة تقع على ضفاف نهر دجلة وتحيط بها من كل جانب بساتين النخل والحمضيات. وفي ثانوية جسر ديالى أنهى دراسته الثانوية، وكان الوصول إليها يتطلب ركوب الباص من وسط بغداد إلى منطقة المدائن.
- وقد تشكلت له خلال سنته الإعدادية مجموعة صداقات قائمة على القراءة في مختلف المجالات، وتبادل الكتب والمقالات، وكان للأستاذ الراحل محمود الرIFI دور كبير في توجيهه نحو الأدب والفلسفة خلال عامي 1964-1965.
- بعد أن أنهى دراسته الجامعية وحصله على بكالوريوس في الرياضيات من كلية العلوم / جامعة بغداد، خدم لعام واحد في الجيش، ثم عُيّن مدرساً للرياضيات في ثانوية العطيفية حتى عام 1976، حيث سافر ضمن بعثة تعليمية

عراقية إلى الجزائر، وكان من المقرر أن يعود إلى العراق في عام 1980 بعد انتهاء إعارته، لكنه قرر البقاء في الجزائر والعمل بموجب عقد شخصي كمدرس للرياضيات في معهد للمعلمين بمدينة وهران.

- نشر أول قصة قصيرة له في مجلة الآداب اللبنانية عام 1983 تحمل عنوان "طيور السنونو".
- انتقل لؤي عبد الإله إلى لندن عام 1985، حيث عمل في عدة مجالات منها التعليم والترجمة.
- ظل لؤي عبد الإله منذ وصوله إلى لندن عام 1985 يعمل في مجالي الترجمة وتدريس الرياضيات أولاً في معاهد مسائية مختلفة، ثم بدأ قبل حوالي عشرين سنة بتدريس اللغة العربية لغير الناطقين بها في معهد سواس وجامعة ويستمنستر وجامعة أغا خان.
- منذ أواخر الثمانينيات وحتى الآن، نُشرت له مقالات أدبية وفكرية وقصص قصيرة في عدد من الصحف العربية مثل "الحياة"، و"الشرق الأوسط"، و"العرب"، و"القدس العربي"، كما نُشرت أعماله في مجلات أدبية متعددة مثل "الآداب اللبنانية"، و"الكرمل"، و"الناقد" التي كان يصدرها رياض الريس في لندن.